نساء رائدات

٢

من الشرق

املي نصرالله























الدار المصرية اللبنانية

نساء رائدات

مِنَ الشرق

(٣)

إمِلي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الشرق

(٢)

الدار المصرية اللبنانية

تصميم الغلاف: وسيم قيس

الطبعة الأولى

٢٠٠١



الدار المصرية اللبنانية طباعة . نشر . توزيع

16 شارع عبد الخالق ثروت تلفون: 3936743 - 3910250 فاكس: 00202 3909618 ص. ب: 2022 القاهرة

AL-Dar AL-MASRIAH AL-LUBNANIAH Printing - Publishing - Distribution

16 Abd El-Khalek Sarwat st. P.O.Box: 2022 Cairo - Egypt Tel: 3910250 - 3936743 Fax: 00202 3909618

زينب فواز



«... ونحن، نساء الشرق، لا يمنعنا الحجاب من التفوّق والخوض في كل مجال».

تتميز **زينب فواز** عن سواها من رائدات النهضة الفكرية النسائية، في لبنان والعالم العربي، بأنها مهدت لنفسها السبيل، ثم اجتازته، وحدها.

من أرض الجنوب الخيرة طلعت، مثل زهرة برية، حاملة كل ما تنطوي عليه أزهار البراري من تألق وحيوية.

وكنت، خلال بحثي عن ملامح شخصيتها، أتساءل: **كيف بلغت تلك المرأة ما بلغته من وعي ونضج فكري، وهي القادمة من خلفية الفقر واليتم، ثم الجهل؟**

لكن الفقر الذي وصفه **غاندي** بقوله: «**إنه أسوأ أنواع العنف**»، لم يستطع أن يغلب نفساً تائقة إلى الحرية، وطامحة إلى المعرفة. بل يكاد خط القدر يبرز جلياً بين سطور حكايتها، وإلا فكيف يمكننا أن نفسر المحطات التي انتقلت بينها ووجدت، عند كل واحدة منها، يداً تسندها، ثم تدفعها إلى الأمام، وإلى يد أخرى ترعاها، وتعنى بها، وكأنها تلقت وحياً خاصاً لتخدم هذه الفتاة الواعدة.

* * *

قبل ربع قرن من الزمن، كتب البحاثة **محمد يوسف مقلد** في مجلة «**العرفان**» مقالاً، تساءل فيه عن المصدر الذي الهم تلك الرائدة، من رائدات الأقلام النسائية في القرن التاسع عشر، ودفعها إلى بلوغ مرتبة رفيعة بين أدباء عصرها. ومن بعض تساؤله الفقرة التالية: «**ترى،**

من أين جاءت هذه الفتاة بميلها المبكر النادر إلى الكتب؟ فلا عن طريق الوراثة عرف أنها اكتسبت هذا الميل من أب أو أم. ولا عن طريق البيئة التي كانت الأمية، فيها طابع الحياة العامة كلها. فحتى أوائل القرن العشرين، كان في جبل عامل قرى كثيرة، تعد الأمية فيها مائة بالمائة».

حقاً، من أين جاءت **زينب** بذلك الوعي، بل النبوغ؟

* * *

كل ما يعرف عن أصلها أنها ولدت، بين العام، ١٨٤٥ و١٨٦٠ في بلدة **تبنين**، في جنوب لبنان. وهي بنت **علي بن حسين بن إبراهيم بن محمد بن يوسف فواز** العاملي. من أسرة فقيرة، لا نعرف الكثير من أخبارها. حتى **زينب** نفسها التي أرّخت لأربعمائة وست وخمسين امرأة من نساء الشرق والغرب، في مؤلفها الموسوعي، «**الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**»، صمتت عن ذكر أي شيء يمكن أن يعرفنا إلى شخصها بالذات أو إلى عائلتها. وبذلك، تركت المجال واسعاً أمام التكهنات، والروايات الغريبة، والتي تقرب أحياناً من الأساطير.

* * *

وإذا عدنا قليلاً إلى تاريخ المنطقة في تلك الحقبة من الزمن، يمكننا أن نتخيل الوضع الذي وجدت فيه **زينب**، إنها من عائلة محترمة في بلدة **تبنين**، برغم فقرها. وكانت مقربة من **الأسرة الأسعدية** الحاكمة. وقد اتصلت **زينب**، بالسيدة **فاطمة**، **بنت أسعد الخليل** وهي زوجة **علي الأسعد**، وقضت سنوات تفتحها الأول بقربها، في حاشية من النساء.

ويبدو أن نباهة زينب استرعت اهتمام ربة القصر، فأخذت ترعاها، وعلمتها القراءة والكتابة. كما حفزتها على الاستزادة من مناهل العلم والمعرفة، إذ كانت تتوسم فيها كل خير. وحفظت الفتاة القرآن وفهمته. وظل، طوال حياتها، قاعدة انطلاقها الروحي والفكري واللغوي.

* * *

ظلت **لزينب** منزلة خاصة في **دار آل الأسعد**، بفضل ذكائها، وخوضها غمار الأدب والشعر. ويبدو أن **السيدة فاطمة** كانت ذات ميول أدبية، وهذا ما وثق أواصر الصلة بينها وبين الفتاة اليافعة. وبقيت **زينب** مخلصة لسيدتها، وقد كتبت سيرتها في عداد من أرّخت لهن من الشهيرات، في «**الدرّ المنثور...**» كذلك اهتمت السيدة **فاطمة** بمستقبل **زينب**، وبتشجيع منها، تمَّ زواجها برجل يدعى **محمد حمود فواز**.

ويروي الأستاذ **مقلد** على لسان عجوز من تبنين الحكاية التالية:

«كانت زينب في «القلعة»، عند الست فاطمة. كانت امرأة فهيمة، قمحية اللون، جميلة. تزوجت وهي في «القلعة» رجلاً من بيت حمود. كان رئيس السواس (أي سواس الخيل) عند الأمير «علي بك». وكانت تلك خدمة ممتازة في حينه».

لكن هذا الزواج لم يدم طويلاً لعدم امتزاج طباعهما. وبتأثيره، كتبت **زينب** في «**الرسائل الزينبية**» (وهي، ربما، أهم اعمالها) تقول:

«ماذا تؤثر آداب المرأة وحسن سياستها، في نفس الرجل السيِّئ الأخلاق؟ فالمرأة إذا اقترنت بالرجل السيِّئ، وأوقفت قلبها عليه،

وسلمت أمرها إليه واجتهدت في مرضاته، فلا ترى منه إلا الفتور، والتمادي في طريق اللهو والغرور، واتباع خطة الشهوات والشرور، فتصير كمن كتب على صفحات الماء، أو تعلق بالهواء، فتندم من حيث لا ينفع الندم ويصعب الخلاص بعد رسوخ القدم. وحينئذ يلازمها الحزن الذي لا ينقطع إلا بانقطاع التواصل. وإذا كانت الحال كما وصفت، فَلِمَ لا تفضل حالتها الأولى على قرين السوء؟».

وهكذا عادت الفتاة من هذا الزواج الخائب، لتتابع مسيرتها في طريق الأدب، وقد زادتها التجربة قوة ومناعة، وانضجت فكرها، ودفعتها إلى المزيد من التأمل في شؤون بيئتها ومجتمعها، خصوصاً وضع المرأة في ذلك المجتمع. فهي لا تستطيع أن تبقى وحيدة، متحررة من ارتباطها بالرجل. وهكذا، بدأ الكلام حول زواج جديد. وكانت القصة، هذه المرة، مختلفة، بل في غاية الغرابة. ولا أعرف إذا كان من المعقول أن يحدث لتلك الفتاة النابهة ما حدث لها مع القريب، الذي شاء أن يرغمها على الزواج به، بل حاول اختطافها وقد نجت منه مصادفة...

ولا بأس من متابعة الحكاية، بكل ما فيها من عناصر الغرابة والتشويق، مع نصير المرأة **جرجي نقولا باز** الذي روى ما يلي: «**شاء قريب لزينب أن يتزوجها فصدَّته، مع أنها لم تكن جميلة، ولا أنيقة...** (وهذه شهادة مناقضة لشهادة من عرفوها في قريتها) **وقد استدرجها الرجل إلى غابة مجاورة للقرية وربطها إلى شجرة كي لا تهرب منه، ثم راحٍ يجادلها ويحاول إقناعها بفكرة الزواج. وحين لم يلق منها قبولاً، هددها بالقتل. وبقيت هي مالكة أعصابها**

رابطة الجأش، وقد أدركت بفطنتها أن أقل مبادرة عنف منها قد تدفع نسيبها إلى عمل جنوني. وفيما هما على تلك الحال، سمع وقع خطوات تقترب من الغابة. ولم تُبْدِ هي أي اهتمام. وراحت الخطى تقترب أكثر. ولما تأكدت أن المارة هم من «المكارين» صمتت، وخرس الرجل، ثم فاجأته بصرخة مدوية جفلته فهرب مذعوراً وسمعها المارة، فهرعوا إلى مصدر الصوت، وفكوا وثاقها. وبعدما أخبرتهم قصتها، رجت منهم أن ينقلوها معهم إلى بيروت. وانفصلت عنهم في محلة البسطة، وراحت تطرق الأبواب كي تعمل خادمة. وقد وجدت عملاً لدى أسرة يوسف حمدي يكن المصرية. وبعد مدة تزوجت رجلاً من الحاشية، وسافرت معه إلى مصر».

* * *

هذه النقلة تطوي الصفحة الأولى من حياة زينب، لتفتح صفحة جديدة ومختلفة في مصر، حيث بقيت مع آل **يكن** في الاسكندرية ولفتت بذكائها، نظر صديق للعائلة، هو **حسن حسني الطويراني**، وكان أديباً وصاحب مجلة «**النيل**» فراح يعلمها ويعنى بثقافتها، ودعاها لتقرأ الأدباء والشعراء وعلمها التاريخ. وجاء في رواية أخرى أنّ زينب درست الإنشاء والنحو على **محي الدين النبهاني**، والصرف والعروض والبيان على **محمد شبلي**.

وأبدت الفتاة ذكاء خارقاً، ووعياً عظيماً لاغتنام الفرصة الذهبية التي أتيحت لها والاستفادة منها إلى أقصى حد، خصوصاً وأن مصر، في تلك الفترة، أصبحت موئلاً للمفكرين، وطلبة العلم، وقد لجأ إليها

عدد كبير من العلماء والفنانين، من سوريا ولبنان، نظراً للجو السائد من حرية القول والفكر، نسبة إلى حالة هذين البلدين، إبان الحكم العثماني.

* * *

أما **فوزية فواز** التي كتبت أحدث دراسة عن الأديبة الجنوبية، فقد أهملت القصة المثيرة التي نسبت إلى **الأستاذ باز**. وقدرت أن تكون الفتاة الطامحة قد اتجهت بنظرها إلى مصر، مثلما فعل سواها، من أدباء وطنها. وربما سافرت بصحبة أخيها **محمد علي فواز** الذي عاش في مصر، ودرس المحاماة، وتوفي هناك وقد رثته أخته في أكثر من قصيدة. كذلك ورد ذكر هذا الأخ في بعض رسائلها، خصوصاً رسالة منها، موجهة إلى «**برتا أونوري بالمر**» رئيسة القسم النسائي في معرض شيكاغو، عام ١٨٩٣، وقد كتبت اليها تقول: «**لم أر هدية ترفع للمعرض النسائي من مثلنا نحن الشرقيات، أليق وأجدر من هذا الكتاب (الدر المنثور...) الذي يحتوي على تراجم النساء وطبقاتهن في الهيئة الاجتماعية**. وجمعت فيه من تراجم شهيرات العرب ومتقدمات الافرنج، وملكات الشرق والغرب، من كل أديبة فاضلة، وملكة عاقلة وخطيبة وناثرة... ولو كانت عوائدنا، نحن النساء المسلمات تسمح لنا بالحضور في مثل هذه الاجتماعات لكنت سعيت بنفسي لتقديمه».

ثم تطلب منها أن تتفضل بالجواب على: «**يد شقيقي محمد أفندي علي فواز الأفوكاتو بمصر**».

وبرغم رضوخها لبعض التقاليد فإن زينب لم تكن راضية ببقاء المرأة

العربية مراوحة مكانها، بل كانت ترسل النداء تلو الآخر، وتحثها على النهوض، عبر مقالاتها، المنشورة في عدد من صحف ومجلات زمانها، وفي مقدمتها: «**النيل**» ثم «**المؤيد**»، «**الأهالي**»، «**المهندس**»، «**فرصة الأوقات**»، «**الهلال**» «**الفتاة**»، «**المقتطف**»، «**أنيس الجليس**»، «**لسان الحال**» و «**البستان**». وإذ أحرص على تعداد تلك الصحف، فلكي أشير إلى الحقل الشاسع المفتوح أمامها وأمام كل رائدة، كانت لها جرأة **زينب** في التصدي الفكري للنهوض بالمرأة والمجتمع، عن طريق العلم والمعرفة، وذلك في عهد لم يكن فيه صوت المرأة مسموعاً.

و«**رسائلها الزينبية**» كانت سابقة لدعوة **قاسم أمين**، رائد مناصرة المرأة، و**عائشة التيمورية**، بل كانت أول صوت نسائي مصري على طريق النهضة والتحرير. وبالطبع قبل **مي زيادة وهدى شعراوي**. ومن هنا، تكتسب **زينب** أهمية الريادة، كما تسجل مواقفها، والمواضيع التي طرقتها، وعياً عجيباً، ونظرة بعيدة، إلى مستقبل المرأة لا في وطنها وحسب بل وفي الشرق عامة، إذ إن الدعوة، كانت مشرقية، وبقيت كذلك، في عصر **مي**، وحتى من أقتفين آثارها، من الكاتبات والمحاضرات و«**كلنا في الهم شرق**» كانت شعار النهضة الأولى، والمرحلة التي تلت.

* * *

ولم تترك **زينب** فرصة تمر من دون أن تسجل موقفها حيالها. وعندما أصدر **جرجي نقولا باز** مجلة «**الحسناء**» في لبنان، كانت هي أول من بعث قصيدة مديح نذكر منها:

«أَذِعْ آيَ الـثـنـاء عـلـى كـريـم   سـمـا فـي حب إصلاح الغواني
«فـحـسـنـاء» الـعـلى قد انعشتنا   وسـعـي «الـبـاز» موفور الأماني»

كما تصدت للأديبة السورية **هنا الكوراني** في جريدة **«النيل»** حين انتقدت نساء بريطانيا لمطالبتهن المشاركة في سياسة البلاد. **فزينب** ذات النظرة الشمولية، ترفض أن تحدد المرأة في دور واحد دون سواه. وبذلك تقدمت على رائدات عصرها. وتعدى اهتمامها، وضع المرأة في بلادها، ليشمل الوضع النسائي عامة... تشهد على ذلك وقفتها الشجاعة الواعية ومناهضتها لقرار كان الاتحاد النسائي العالمي قد اتخذه في مؤتمر في مدينة **«سانتياغو»** **«بالتشيلي»** عام ١٨٩٣، وفيه دعا النساء الأعضاء إلى حصر نشاط المرأة، وتضييق أفقها، وتشجيعها على الانصراف إلى شؤون البيت والأسرة. كما حررت رسالة بهذا المعنى تعارض فيها موقفاً لصاحب مجلة **«العرفان»** **عارف الزين** قالت فيها: «**إن المرأة قادرة على القيام بأعمال الرجال، بخلاف ما قلت، أيها السيد، في إحدى مقالاتك. وها هن نساء الغرب يتفوقن على الرجال، كما تدل سيرهن التي وضعتها في الكتاب المرسل إليك. ونحن، نساء الشرق، لا يمنعنا الحجاب من التفوق والخوض في كل مجال**».

* * *

لم يكن صوتاً عادياً، صوت **زينب فواز**. وقد اسمعته كل من اهتم بالأدب، أو بنهضة المرأة في زمانها، من **«مصر»** إلى **«بلاد الشام»**.

وكانت قد بدأت تتألق وتنعم بمجد الشهرة، حين تلقت رسالة من الأديب السوري **أديب نظمي** رئيس جريدة **«الشام»**، يعبر فيها عن

وإذا بقيت بعض الزوايا، من حياة هذه الأديبة، مجهولة من الباحثين، وكتّاب السيرة، فلأن **زينب** اهتمت بأن تكتب عن غيرها، ولم تكتب عن نفسها. وربما تركت امر ذلك لمن يأتي بعدها.

* * *

ومع أن الآثار التي تركتها لنا، بقيت ردحاً من الزمن منسية ومجهولة، إلا أن «**المجلس الثقافي للبنان الجنوبي**» تنبه إلى هذا الأمر، وبدأ ينشر بعض مؤلفاتها، في سلسلة «**التراث العاملي**» صدر منها الى حين كتابة هذه الصفحات، رواية «**حسن العواقب**» ومسرحية «**الهوى والوفاء**» كما سيصدر تباعاً كتابها الموسوعة «**الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**» و«**الرسائل الزينبية**» وهي الأهم إذ انها دليلنا إلى المدى الذي بلغته هذه الأديبة في وعيها ونضج تفكيرها.

كما ان لها رواية تاريخية عنوانها «**الملك قورش**» و «**كشف الازار عن مخبئات الزار**». وذكرت بعض المراجع أعمالاً لها بقيت مخطوطة وهي: «**مدارك الكمال في تراجم الرجال**»، «**الدر النضيد في مآثر الملك عبد الحميد**» وديوان من الشعر.

ولا أجد أفضل من وقفتها الفلسفية التأملية، كخاتمة لكلمتي عنها، إذ قالت:

«بدء الحياة وجود حيث نغشاه   نظل نرجو، وما نرجوه نخشاه

والمرء في جوهر الدنيا حكى عرضاً   يزول عنها وتبقى عنه دنياه

لا شيء من زينة الدنيا لساكنها   سوى محاسن ما تبقيه ذكراه»

«رأيت أناساً يضربون نساءهم فشلّت يميني يوم أضرب زينبا
فزينب شمس والنساء كواكب إذا طلعت لم تبق منهن كوكبا»

* * *

وفي مصر، عادت زينب إلى متابعة حياتها الأدبية. إلا أنها، مع تقدم العمر، بدأت تشعر بالحنين إلى قريتها تبنين. وعبرت عن شوقها في قصيدة وجدانية جاء فيها:

«يا أيها الصرح، إن الدمع منهملُ فهل تعيد لنا يا دهر من رحلوا
قد كنت مسقط رأسي في ربى وطني إن الدموع على الأوطان تنهمل
أبكيك يا صرح كالورقاء نادبة شوقاً إليهم، إلى أن ينتهي الأجل»

* * *

وحل أجلها في أواخر كانون الثاني عام ١٩١٤، وجاء في النعي الذي نشرته الصحف في حينه: «**نعت إلينا أنباء مصر المرحومة زينب فواز، الكاتبة، الشاعرة والمؤلفة، وأول امرأة اشتهر اسمها في عالم الأدب والكتابة في الصحف، وقد نالت شهرة بعيدة في حياتها. ونالت حظوة كبيرة عند كبراء مصر وسوريا**».

ورحلت، بعدما حملت رسالة بعث المرأة العربية من جمودها، ورجعية محيطها. وصورت المجتمع المصري على حقيقته. خصوصاً أوضاع المرأة فيه. وقد مكنتها خبرتها، ونظرتها الثاقبة، وتحررها الفكري، من كتابة أعمال في غاية الأهمية.

وإذا بقيت بعض الزوايا، من حياة هذه الأديبة، مجهولة من الباحثين، وكتّاب السيرة، فلأن **زينب** اهتمت بأن تكتب عن غيرها، ولم تكتب عن نفسها. وربما تركت امر ذلك لمن يأتي بعدها.

* * *

ومع أن الآثار التي تركتها لنا، بقيت ردحاً من الزمن منسية ومجهولة، إلا أن «**المجلس الثقافي للبنان الجنوبي**» تنبه إلى هذا الأمر، وبدأ ينشر بعض مؤلفاتها، في سلسلة «**التراث العاملي**» صدر منها الى حين كتابة هذه الصفحات، رواية «**حسن العواقب**» ومسرحية «**الهوى والوفاء**» كما سيصدر تباعاً كتابها الموسوعة «**الدر المنثور في طبقات ربات الخدور**» و«**الرسائل الزينبية**» وهي الأهم إذ انها دليلنا إلى المدى الذي بلغته هذه الأديبة في وعيها ونضج تفكيرها.

كما ان لها رواية تاريخية عنوانها «**الملك قورش**» و «**كشف الازار عن مخبئات الزار**». وذكرت بعض المراجع أعمالاً لها بقيت مخطوطة وهي: «**مدارك الكمال في تراجم الرجال**»، «**الدر النضيد في مآثر الملك عبد الحميد**» وديوان من الشعر.

ولا أجد أفضل من وقفتها الفلسفية التأملية، كخاتمة لكلمتي عنها، إذ قالت:

«بدء الحياة وجود حيث نغشاه نظل نرجو، وما نرجوه نخشاه
والمرء في جوهر الدنيا حكى عرضاً يزول عنها وتبقى عنه دنياه
لا شيء من زينة الدنيا لساكنها سوى محاسن ما تبقيه ذكراه»

وذكراها، تبقى اليوم وغداً. فالرائدة التي غادرت الدنيا قبيل الحرب العالمية الأولى، تركت بعدها درساً في العصامية، وقوة الإِرادة وثبات العزيمة، وهذه بعض من «**محاسن ذكراها**».

- أديبات لبنانيات - أملي ف. إبراهيم.
- مجلة الرائدة - معهد الدراسات النسائية في العالم العربي.
- المرأة في عالمي العرب والإِسلام - عمر رضا كحالة.

أنس باز



«طوباكِ! لانكِ فتحت باب التعليم أمام بنات بلادي».

تاريخ المرأة حديث العهد. المرأة الرائدة، أعني، في العلم كما في الأدب والفن وسائر المعارف والعلوم! ومن صفحة التاريخ القريب اقرأ حكايتها.

* * *

أنس بركات. مولودة عام ١٨٧٤ . أي في الربع الأخير من القرن التاسع عشر، من عائلة لبنانية راقية، بدليل انها هيأت الفرصة لفتياتها كي يتابعن دراستهن الثانوية – ثم العالية.

* * *

أنس (ربما اختصار للاسم الروسي انستازيا) طالبة في مدرسة الإنكليز في بيروت. مجتهدة، وصاحبة طموح لا يعرف حداً. رفيقاتها في المدرسة، باقة من الصبايا الخجولات. **وعلياء** الرفيقة المفضلة بينهن.

ذات يوم، تلاحظ أنس شحوباً يعلو وجه علياء، وحزناً يزنر عينيها. تقترب منها مستفهمة:

– ما بك، يا صديقتي؟

ترد الفتاة بأسى:

– أمي مريضة.

– احضروا لها الطبيب.

- الطبيب؟... وهي امرأة؟!...

- إذاً، استدعوا طبيبة.

- وتحسبين أن عندنا طبيبات؟.

تلك الليلة لم تنم الفتاة. قضت ساعات أرقها تتساءل:

- لماذا لا يكون عندنا طبيبات.

* * *

ولكن الفرصة غير مهيأة للمرأة. والجامعة التي تدرّس الطب، في بيروت، تستثني الفتيات. الاختلاط بين الجنسين ممنوع... وكيف السبيل إلى تحقيق الطموح؟

يقول فيلسوف معاصر:

- حين تكون الرغبة في الشيء قوية وصادقة، فهي تشق سبل تحقيقها.

والصبية الحلوة **أنس** راغبة في دراسة الطب. وإذا اصطدمت رغبتها بأسباب محلية، فهناك العالم ينفتح لها. ولكن، كيف تتوصل، فتاة وحيدة، إلى غزو العالم؟

* * *

خط قدرها يجيب عن السؤال. ها نحن في العام ١٩٠١ . وأنس في السابعة والعشرين من عمرها، مرحلة بدء الأفول بالنسبة إلى حسابات عصرها. وهي، تضع قدمها على عتبة الحياة. شقيقتها **(مرتا)** تتسلم رسالة من زوجها **(قسطنطين مكنا)** المغترب في أميركا، يستدعيها للذهاب إليه. وتغتنم **أنس** الفرصة فتسافر، برفقة شقيقتها،

لتتابع دراستها العليا في الخارج.

فور وصولها، قبلت في جامعة **ديترويت** - **ميشيغن** - وفي كلية الطبّ بالذات. أربع سنوات، قضتها الصبية، في دراسة الطب، مركزة على الطب النسائي، ومشعة في محيطها الطلابي، كنجمة. فقد حصلت على منحة، نظراً لتفوقها، كما كانت مندوبة صفها إلى المؤتمرات الطلابية...

وشاءت أن تتفرد في دراستها، فتخصصت إلى جانب الطب النسائي، بمعالجة الأمراض المزمنة عن طريق مداواة اعراضها. وقبل أن تعود إلى لبنان، عام ١٩٠٧، عملت مدة سنة في عدة مستشفيات من **نيويورك** إلى **فيلادلفيا**، واكتسبت خبرة هامة، نقلتها لتخدم بها أبناء وطنها.

ولم يكن صعباً عليها ان تبدأ ممارسة الطب، فالأبواب شرعت أمامها، نظراً لحاجة المجتمع القصوى، إلى وجود طبيبة - انثى.

وقد تسلمت إدارة **مستشفى القديس جاورجيوس** طوال أربع سنوات، وهذا دليل واضح على الثقة بمؤهلاتها. كما أنشأت عيادة خاصة بها، في محلة الجميزة.

الطبيبة المميزة على طريق الصعود. تجربتها الناجحة، شجعتها لتدفع غيرها فوق سبل العلم، فقد حثت أختها «**زهية**» على السفر لدراسة الصيدلة. وبالفعل سافرت **زهية**، وعادت، عام ١٩٢٨، حاملة شهادات في الصيدلة والتحليل، خولتها أن تفتح صيدليتين، واحدة في بيروت والثانية في بلدة ضهور الشوير.

* * *

ذاعت شهرة الطبيبة، وانتشر نشاطها بين مصر وسوريا والعراق. كذلك اهتمت بالنشاطات الثقافية والاجتماعية، واشتركت في عدة جمعيات نذكر منها: «**جمعية الأطباء والصيادلة**»، «**الطبيبة اللبنانية**»، «**نقابة أطباء لبنان**» و «**جمعية مقاومة السل**». وكانت عضواً في كل من «**المجتمع العلمي السوري**»، «**الهلال الأحمر**» و «**الأكاديمية الدولية**» في **سان لان**. وهي صاحبة فكرة إنشاء «**جمعية الصدق**» التي نشرت فروعها في معاهد الفتيات، لتحث الفتاة على الأمانة وعدم الخوف من مواجهة المواقف الصعبة.

والذين رافقوا هذا النشاط الطريف يروون أن الفتاة التي كانت تظفر بجائزة الجمعية، سرعان ما تجد فتاها وتتزوج زواجاً سعيداً.

وكانت للدكتورة **أنس**، لفتة خاصة إلى مدارس البنات، جسدتها بتقديم جائزة لكل من مدرسة «**نور الحياة**»، «**مدرسة الروم**» و «**الثلاثة أقمار**» **في بيروت، ومدرسة** «**الصراط**» **في عاليه.**

ولم تكن تتردد، في يوم، عن تلبية دعوات الأندية والجمعيات، إلى إلقاء المحاضرات وتوعية الجمهور، صحياً وثقافياً.

* * *

وصدف، في اثر عودتها من أميركا، أن دعيت إلى إلقاء محاضرة في حفلة اقامتها جمعية «**شمس البر**» كان موضوعها «**الكهربائية والطب**». أما الخطيب الآخر في الحفلة، فكان الأديب **جرجي نقولا باز** وألقى كلمة عنوانها: «**مالي جَلَد**»..

وبعد انتهاء الحفلة، تقدم الخطيب يهنئ الدكتورة على شجاعتها،

كما هنأته هي، بدورها، على ما يبديه من حماسة، تجاه كل ما تختصّ به المرأة، من شؤون علمية وحضارية.

* * *

بعد هذا اللقاء، صار الصحافي والأديب، **جرجي**، يتحين الفرص للاتصال بالطبيبة، يطلب مساعدتها، في أمور تتعلق بجمعية «**مقاومة السل**» التي يرعاها. وتطورت الصداقة، حتى انتهت بخطبة، فزواج عام ١٩١٥ .

ومن طريف ما يذكر عن الخطيبين، انهما قاما بترجمة مذكرات الامبراطور الروماني **مارك أوريل** في انتظار موعد الزواج.

* * *

كان لقاء هذين الزوجين مثمراً من عدة وجوه: فالطبيبة تابعت نشاطها العلمي والاجتماعي، بمناصرة زوج نال عن حق وجدارة لقب «**نصير المرأة**» في مرحلة عز فيها وجود أنصار يدعمون نضال المرأة. فكان هو و**محمد جميل بيهم** في لبنان، مثلما كان **قاسم أمين** في مصر. والمؤسف، أن هذه الأسماء الثلاثة، قلما تذكر، في سياق الكلام، على تاريخ النهضة النسائية، وإن ذكرت يبقى الذكرُ مقصراً عن توفيتها حقها.

لقد تمكن **جرجي نقولا باز**، بمناصرته المرأة، أن يقدم المثال الضروري، لتلك المرحلة. وكان موقفه فاعلاً، نظراً لعمله، في حقلي الصحافة والأدب، ولم يتخل عن تلك المناصرة حتى آخر يوم من حياته.

* * *

أما رأيه في زواجه بطبيبة، فقد عبر عنه في حديث صحفي قال فيه: «**زواجي بالدكتورة أنس وطد في رأسي النظرية التي راودته منذ فجر فتوتي - أعني أهلية المرأة لكل صلاح. لم نصطدم في حياتنا العملية. شجعتها على مزاولة الطب، وشجعتني على الأدب. إن توفيقي في الزواج، قوى ثقتي بالمرأة، فأنا نصيرها طَوَال العمر**».

وكانت ثمرة هذا الزواج ولدين هما: **اسكندر ونقولا باز**.

* * *

ويروي **نقولا** عن والديه انهما: «**كانا زوجين مثاليين. أبي ساعد المرأة على التحرر المعنوي، وأمي ساعدتها على تخفيف آلامها الجسدية... لم تكنٍ والدتي تتأخر عن تلبية حاجة مرضاها، ومهما كان الوقت متأخراً في الليل، كانت تنهض فترتدي ثيابها، ولا تنسى أن تمسح وجهها بذرات بودرة تزيده تألقاً. كانت امرأة أنيقة، ومكتملة الأنوثة**».

* * *

في العام ١٩٢٣ قامت الطبيبة، والأم والزوجة، برحلة دراسية إلى فرنسا، استغرقت سنة كاملة، قضتها في متابعة تخصصها في الجراحة النسائية، وذلك في مستشفى «**بروكا**». وكان زملاؤها أطباء من دول أوروبا وآسيا وأميركا اللاتينية، بينما هي المرأة الوحيدة بينهم. وهذا ما ترويه صورة مأخوذة للمناسبة، وتحمل تواقيع عشرين طبيباً... للذكرى.

* * *

لم تتخرج **الدكتورة أنس** من الجامعة الأميركية في بيروت، إلا أن نجاحها في حقل الطب، في زمانها، دفع الجامعة إلى تبنيها واعتبارها بين المتخرجين من معهدها الطبي.

وهذا ليس كثيراً على طبيبة، خدمت مجتمعها، طوال خمسين سنة، وكانت شعلة نور في محيطها، ونسمة أمل للمرضى والمتألمين... كذلك قلدتها الحكومة اللبنانية وسام الاستحقاق المذهّب، اعترافاً بخدماتها الإنسانية.

ولم تتوقف عناية **الدكتورة أنس**، على جسم المرأة، بل كان لها اهتمام بنفسيتها. وتعود جذور هذا الاهتمام إلى سنواتها الدراسية، إذ أولت دراسة الحالات النفسية لدى المرأة والطفل، عناية خاصة.

* * *

وإننا نقدر أهمية الخطوة التي قامت بها هذه المرأة الشجاعة، حين نعود، بالذاكرة، إلى مطلع القرن، ونتذكر كم أن الأبواب كانت موصدة في وجه المرأة، مما دفع الرائدات، إلى التحدي، كما دفع الأدباء الواعين، إلى دعم هذا التحدي، والوقوف في صف المرأة، والانتصار لقضيتها.

* * *

وإن الخطوة الأولى التي خطتها الصبية **أنس**، عام ١٩٠١، حين ردت الباب خلفها، وعبرت بحار التحدي، كان لها صدى في صفوف الصبايا الطامحات.

وقد كتبت لها واحدة منهن تقول: «**طوباك! لأنك فتحت باب التعليم أمام بنات بلادي**».

وكان هذا أول عهد الرائدة الصحافية **جوليا طعمه دمشقية**، في الكتابة. أما الأديبة **سلمى صائغ**، فقد أهدتها، بعد ربع قرن من هذا التاريخ، باكورة أدبها «**النسمات**» وكتبت في التقديم:

«إلى أنس العزيزة، السائرة بسرعة إلى ذروة الكمال الإِنساني، المضيئة بروحها النيّرة سبيل جهادنا النسائي، إلى المرأة التي علمتني أن أخدم بمحبة ومعرفة، أقدم هذا الكتاب».

- من حديث شخصي مع زوجها الأديب جرجي نقولا باز.
- صحيفة أوريان البيروتية.

هدى شعراوي



«ورفعنا النقاب، وقرأنا الفاتحة ثم نزلنا على سلم الباخرة».

يغرق الباحث عن شخصية **هدى شعراوي**، في بحر من الدراسات والقصائد والمقالات التي تناولت شخصيتها وعملها، بالمديح والثناء حتى أقصى حدود الكلمة.

وبالطبع، لم يغدق الكلام على هذه الرائدة المتميزة، مجاناً، فقد دفعت ثمنه سلفاً من خلاصة الروح ونور العينين.

* * *

ولدت **هدى شعراوي** «**أو هدى مصر**» كما لقبوها فيما بعد، في المنية، من بلاد الوجه القبلي، بتاريخ ٢٣ حزيران عام ١٨٧٩ وتوفيت في ١٣ كانون الأول عام ١٩٤٧ .

أبوها **محمد سلطان باشا**، رئيس أول مجلس نيابي في مصر قبل الثورة العرابية، وحاكم الصعيد العام، ومن أغنى أغنياء مصر. وقد توفي ولها من العمر خمس سنوات. وتقول في مذكراتها:

«كنت قليلة الاتصال بوالدي. إلا أنني كنت أذهب إلى غرفته، كل صباح، لأقبل يده، ومعي أخ لي من أم ثانية اسمه إسماعيل، فكنا نجده متربعاً على سجادة الصلاة يسبّح، فنقبل يده، ويقبلنا، ثم ينهض، ويفتح خزانة كتبه، ويخرج لكل منا قطعة من «الشيكولاتة»... وكان يوم وفاته بدء تنبهي وشعوري بالحياة».

أما أمها، فكانت سيدة تركية على جانب من الوعي والرقي، وهي

التي استدعت لها مدرسين، ليعلموها في البيت، العربية والتركية والفرنسية والموسيقى.

* * *

نعود إلى مطلع مذكراتها فنقرأ: «**كنت في التاسعة من عمري عندما ختمت القرآن الشريف. فظن من حولي انني ملكت ناصية اللغة العربية والديانة. ولكنّي في الحقيقة، كنت لا أستطيع قراءة شيء غير القرآن لأنه مشكّل...**»

أما طفولتها، فتعبر عنها أيضاً مذكراتها خير تعبير إذ تقول:

«**بدأت حياتي تحت رعاية خدم جهلاء، يخفون عن الأطفال أمثالي، ما كان يجب أن يعرفوه من الحقائق، أو يحيطونها بنسيج من الخرافات له خطره وتأثيره على عقول الصغار...**».

* * *

هذه النماذج من الملاحظات الواردة في مطلع مذكرات **هدى شعراوي** ذات دلالة هامة، إذ أنها تنعكس، فيما بعد، على حياتها، وعلى كل جهد بذلته في سبيل تحرير المرأة خصوصاً، والمجتمع عامة، من عقد وترسبات تقليدية كانت تشد بهما إلى التخلف والجمود.

* * *

تزوجت هدى **علي الشعراوي**، أحد أعضاء الجمعية التشريعية. وكان لها من العمر ثلاث عشرة سنة، ووضعت منه ولدين: **محمد** (أصبح فيما بعد عضو الشيوخ) **وبثنة** زوجة **محمود سامي باشا**. أي أن زواجها كان تقليدياً، وحسب العرف السائد، في المجتمع. وكان

لهذه التجربة أثر عميق في حياتها، فحين قامت تناضل، فيما بعد، وضعت في طليعة مطالبها تحديد السن الصغرى للزواج عند الفتاة بست عشرة سنة. وقد نجحت في الحصول على ذلك عام ١٩٢٤ .

* * *

غير أن هذا التاريخ، لم يكن الخطوة الأولى في نضال **هدى شعراوي**، إذ وعت باكراً جداً أن المرأة، في مجتمعها، مسحوقة الإِرادة، والشخصية مهضومة الحقوق، وأن الطفولة تلاقي عذاب المرض، والتشرد والفقر، وأن المواهب مهملة، ضائعة. ودلتها حاستها الشاعرية المرهفة، إلى أن المسرح مهيأ لتلعب عليه دوراً إنسانياً فعالاً، هو دور الريادة والقيادة.

وكانت على أتم الاستعداد، إذ «**جمعت بين المجد الاثيل، والجاه العريق والذكاء الوافر، والأدب الراقي، والثروة الواسعة، والكرم والسخاء والتضحية» كما كانت: «عنوان المرأة التي التقت فيها شروط اللياقة والأهلية والكفاية، والمزايا المادية والمعنوية لخدمة وطنها، والعمل على رفع مستوى بنات جنسها**».

هذا إلى جانب جمال ساحر، وشخصية آسرة، تسطو على من حولها، وتجعلهم ينقادون إليها باللطف والمحبة.

* * *

ولاحظت **هدى**، في مرحلة باكرة جداً (أي سنة ١٩٠٦) ترهل الفتيات في مجتمعها، فدعت إلى بدء نشاط رياضي للفتيات. وأنشأت ملعباً مسوراً لهذه الغاية. لكن الفتيات أحجمن عن ارتياده، وظل الملعب إشارة عند مفترق طرق.

وفي العام ١٩٠٧ أسست جمعية لرعاية الأطفال. وفي العام ١٩٠٨ طالبت جامعة القاهرة بتخصيص قاعة للمحاضرات النسائية والاجتماعية، فكان لها ما أرادت. وفي العام ١٩٠٩ اشتركت في تأسيس «**مبرة محمد علي**» للأطفال المرضى.

وكان هذا كله الخلفية، التي أعدت للنشاط اللاحق الذي أطلقها زعيمة اجتماعية وسياسية، بل رائدة شرقية مميزة.

* * *

ففي العام ١٩١٩ نهضت مصر للمطالبة بالاستقلال. ولم تتخلف المرأة عن تلك الحركة، بل نزلت بحماسة، تساند «**الوفد المصري**». وكانت **هدى**، قد انتخبت رئيسة لجنة الوفد المركزية للسيدات.

وكان أبرز ما قامت به قيادة التظاهرة الكبرى التي خرجت إلى الشارع، تطالب بالاستقلال وكانت تلك، أول مسيرة نسائية، واجهها المجتمع بالذهول، ثم بالتصفيق، واندفع الشعراء يتغنون بهذا النشاط الجديد، **وكانت لحافظ إبراهيم** (شاعر النيل) قصيدة مأثورة نظمها لهذه المناسبة مطلعها:

«خرج الغواني يحتججن ورحت أرقب جمعهن»

ولا بد من وقفة قصيرة عند كلمة «**غواني**» يطلقها كبير شعراء مصر، على النساء المناضلات. وهذه التسمية، إن دلت على شيء، فعلى ما كانت ترسف فيه المرأة الشرقية، من قيود الجهل، وتشرنق الانعزال والاتكالية.

وبالطبع، لم تتوقف **هدى** عند حد المطالبة والتظاهر، بل تابعت سعيها - بعدما اعترفت انكلترا لمصر باستقلالها، عام ١٩٢٢،

وبحقها في الحصول على السيادة التامة.

ولها وقفة مشهودة حين كانت اولى المحتجين، في كتاب عنيف اللهجة، على ضعف **زغلول باشا** أمام المندوب السامي البريطاني، والرضوخ لمطالبه. طالبته **هدى**، آنذاك، في كتاب تاريخي، بالتخلي عن رئاسة الحكومة، لسواه، حتى لا يقف حجر عثرة في سبيل غيره.

* * *

ولا بد من الاشارة، هنا، إلى أن نضال **هدى شعراوي** لم يكن معزولاً عن نضال رفيقات لها، في شتى الأقطار. فالمرأة ظلت ترصد ما كان يحدث في الخارج، وفي دول أوروبا وأميركا بصورة خاصة، كما كانت منفتحة على وضع المرأة في البلدان العربية، بل المشرقية، إذ وسعت رقعة نضالها، فجعلتها مشرقية لا عربية وحسب. وهذه ظاهرة تطالعنا في الأدب الذي كتب في تلك المرحلة، ولا سيما أدب المرأة، والذي كان يخاطب المرأة الشرقية، لا العربية وحدها.

* * *

كذلك تجدر الإشارة، إلى أهمية إنشاء أول اتحاد نسائي، على يد **هدى** عام ١٩٢٣، وكان تحرّكه موزعاً بين ثلاثة قطاعات:

- **القطاع السياسي**، ونشاطه يتركز على مساندة الحركة الاستقلالية، وتعديل الدستور.

- **القطاع الاجتماعي**، واهتماماته التعليم، وحماية الصناعات الوطنية وتشجيعها - وكانت **هدى** توفد على نفقتها حرفيين إلى إيطاليا وفرنسا، وسواهما من الدول المتفوقة فنياً وصناعياً، ليدرسوا، ثم يعودوا فيطبقوا علومهم في معامل أنشأتها من مالها الخاص - وتعميم

المستشفيات وتحديد مسؤولية الوالدين تجاه أولادهم، وتنظيم أوضاع السجون، ومحاربة البدع والخرافات، وبناء مصحات وحدائق للأطفال، وحماية اليد العاملة، وإنشاء التعاونيات الزراعية، وإدخال أصناف زراعية جديدة...

- القطاع الثالث، هو **ما يختص بالمرأة**، وتحقيق مطالبها في التعليم والانتخاب وإصلاح قوانين الزواج، وتحديد سن الزواج، ومنع تعدد الزوجات، وتحديد شروط الطلاق.

وقد نجحت **هدى** في الحصول على قسم كبير من هذه المطالب، في حياتها، وتابعت رفيقاتها المسيرة بعدها، مستنيرات بنور هدايتها.

* * *

في العام ١٩٢٢ فقدت **هدى** زوجها، وخلف لها ثروة ضخمة، لم تحصر الاستفادة منها بشخصها وأسرتها، بل أنفقت منها مبالغ طائلة، على المساعدات الاجتماعية، للأسر المحتاجة، كما أنفقت مبالغ وافرة على البعثات العلمية في الخارج. ولم تقف بعيدة عن الطبقات المحرومة، بل كانت تشرف بنفسها على صرف المساعدات للتأكد من أنها تنفق في سبيل الإِنماء، وإتاحة الفرص للمواهب، كي تترعرع، وتعطي ثمارها.

* * *

وقد أدركت باكراً جداً، أن المرأة التي تتصدى لمثل زعامتها، لا بد لها من التحرر الذاتي. وخلال رحلاتها إلى الخارج، اكتشفت أن أعداء بلادها يستغلون تحجب المرأة العربية للدلالة على تخلفها، ومن هنا بدأت ثورتها، وكانت أول امرأة عربية خرجت مع ابنتها، سافرة،

وتقول بهذا الصدد: «... **وفي العام ١٩٢٠ دعينا إلى مؤتمر نسائي في لندن، واكتشفت أننا دعينا للتشهير بنا، وإظهار بشاعتنا وهمجيتنا، أمام نساء العالم. وعندما بدونا سافرات صاحت المندوبات «لستن مصريات»، قلنا: «لِـمَ؟...» فأجبن: «لكنَّ وجوه مثل وجوهنا»**.

وللسفور قصة ترويها شعراوي: «**كنت، عائدة بصحبة ابنتي، من فرنسا، على الباخرة نفسها التي عاد عليها سعد زغلول. وحين وصلنا إلى الميناء، استأذنت زوج ابنتي، في أن ننزل بين الجموع، سافرتي الوجه، فأذن لنا.**

ورفعنا النقاب، وقرأنا الفاتحة، ثم نزلنا على سلم الباخرة، وتلفتنا لنرى تأثير ذلك، على الجموع، فلم نلاحظ أي تأثير، لأن الناس كانوا متوجهين إلى سعد، متشوقين إلى طلعته».

وتتابع:

«**لكن المجتمع، والصحف المصرية، كان لها موقف الهزء والسخرية، وكانت الشتائم تنهال على كل امرأة، تخرج سافرة. وكنت أتحمل ذلك صابرة متحدية، لكن كثيراً من السيدات لم يستطعن أن يتحملن ما تحملته، فعدن يختفين وراء النقاب»**.

* * *

وعت **هدى شعراوي**، في مرحلة مبكرة، أن النضال السياسي، ليس وقفاً على الرجل من دون المرأة، وقرنت الوعي بالفعل، فتابعت مطالبتها بحق المرأة في الانتخابات، وامتد هذا الوعي إلى سواها من الرائدات في سائر البلدان العربية.

لكن حدة الوعي السياسي تأكدت في موقفها من القضية الفلسطينية. فقد نظمت أول مؤتمر نسائي للدفاع عن فلسطين عام ١٩٣٨ . وعندما سمعت أنباء التقسيم عام ١٩٤٧ أصيبت بصدمة، سببت لها نوبة قلبية حادة لم ترضخ لها، بل قامت تكتب، وتضع خطة لاشراك المرأة في حرب فلسطين، وآخر ما خط قلمها، نقاط مختصرة هي مؤشرات على دروب النضال، وتلخص بوجوب: **المقاطعة، تطوع المرأة خلف الجيوش ممرضة، محاربة التخلف، تقوية الروح المعنوية، التبرعات وفرض الضرائب، الدعاية في الخارج.**

* * *

من الصعب الاحاطة بحياة **هدى شعراوي**، ونشاطها المتعدد الوجوه والصفات، إحاطة كاملة، في مقال أو عدة مقالات، وهي التي اختارت الباب الضيق لتعبر منه، والطريق الأصعب، طريق النضال والريادة، مع أن الحياة وفرت لها كل ما تتمناه المرأة، لتغوص في بحبوحة العيش الرضي، الخامل. والذي يلفت الانتباه، في مسيرتها الحياتية، هو ذلك التعامل الحنون مع كل ما ومن كان يحيط بها.

كانت صلبة الارادة والعزيمة ورقيقة المشاعر، مرهفة الذوق. وقد قرنت النضال السياسي بالنشاط الأدبي والفني، فكانت دارها ندوة سياسية وفكرية، كما اتسع حضنها، لا لولديها وحسب، بل لكل من تخلت عنه أمه الحياة، حتى أن المثّال الشهير مختار دعاها «**إيزيس**» آلهة الأمومة والعطاء عند قدامى المصريين. أما الطلاب العرب في فرنسا، فقد أطلقوا عليها لقب «**جاندارك مصر**» ودعاها آخرون «**هدى مصر**».

ولم يكن مستغرباً أن تخرج مصر يوم وفاتها، تشيعها بدموع الأطفال والنساء، ومراثي الكتّاب وقصائد الشعراء، وفي طليعتهم شاعر القطرين، **خليل مطران** الذي نظم قصيدة مطلعها:

«مصاب مصر مصاب العالم العربي   هل مدمع في ربوع الضاد لم يصب».

وأُورد هنا، أسماء جمعيات ومجلات أنشأتها أو ترأستها:

* الاتحاد النسائي العام.
* جمعية أصدقاء مختار.
* جماعة إنقاذ الطفولة المشردة.
* عضوية شرف في جمعية يوم المستشفيات.
* عضوية شرف في جمعية الاتحاد النسائي الأردني.
* الهلال الأحمر المصري للسيدات.
* جمعية الأمل للصم والبكم.
* جمعية الاسعاف الأهلية.
* وكيلة الاتحاد النسائي الدولي.
* رئيسة شرف جمعية المرأة الجديدة.
* منشئة مجلة «**الأمل**».
* منشئة مجلة «**المصرية**» بالفرنسية والعربية.
* عضو الجمعية النسائية في واشنطن.

وجاءها التقدير من عدة مصادر، فنالت:

* الوشاح الأكبر مع نيشان الكمال المصري.

* وسام الاستحقاق اللبناني المذهب.
* نيشان الاستحقاق السوري الممتاز من درجة أولى.
* نيشان الاستقلال المرصع الأردني – أول امرأة تناله.

- مذكرات هدى شعراوي.
- المراة وأثرها في الحياة العربية - عبد الحميد فايد.

جوليا طعمة دمشقية



«إن الامّة نسيج الامهات».

أحاول، عبر رسم شخصيتها، أن أصف مرحلة هامة، من المراحل التي عبرتها المرأة، باتجاه مسيرة تقدمها واستقلالها.

«**جوليا طعمة**» (**دمشقية** فيما بعد) ابنة المعلم «**جريس طعمة**».

أبصرت النور في بلدة «مختارة» الشوف عام ١٨٨٣، وكانت المولود الثاني في عائلة تتألف من ثلاثة فتيان، وثلاث فتيات. **وجوليا** كانت كبرى الفتيات.

أنفق والدها عمره في التعليم والتربية، وكرّس جزءاً كبيراً من وقته، وأسلوبه التربوي المتشدد، لتأهيل أولاده، وتوجيههم نحو سبل العلم والمعرفة.

ولم تَكْتَفِ **جوليا** بمدرسة الأب، فانتقلت منها إلى صيدا، ثم إلى مدرسة الشويفات، وتخرجت حاملة أعلى شهادة في المدرسة حينذاك. ولم تشأ أن تعلق شهادتها زينة فوق الجدار، بل وظفتها من أجل خدمة الآخرين.

وكان أولئك الآخرون، تلامذتها في مدرسة «**شفا عمرو**» فلسطين، ومدرسة **برمانا**، ثم في **بيروت**.

* * *

أول منعطف، في حياة **جوليا** الصبية، كان وقوفها خطيبة فوق منبر «**التياترو الكبير**» وكانت آنذاك ابنة سبع عشرة سنة، شقراء، طويلة

القوام والشعر، ذات عينين سماويتي الزرقة.

أما المناسبة، فكانت حفلة خيرية اقامتها جمعية (الوقاية من السل) في المسرح الشهير، ودعت إليها أعيان المدينة. وطلب من **جوليا** أن تعتلي المنبر، فصعدت جريئة، واثقة بنفسها، وارتجلت كلمة أثارت الحماسة في النفوس، و«**صارت القاعة تمطر ذهباً**» على حد تعبير أحد الحضور.

وصدف أن كان بين الحاضرين الوجيه البيروتي المعروف «**أبو علي سلام**» فدعاها، خلافاً للتقليد، كي تتسلم إدارة مدرسة المقاصد للفتيات.

* * *

وهنا، تعود بنا **ابنة جوليا**، السيدة **سلوى السعيد** إلى الماضي، فتروي حكاية كانت منعطفاً هاماً في حياة والدتها، إذ تعرضت لحادث سبب لها ألماً، وعطلاً في العمود الفقري، حين صدمها حصان كان يمتطيه شاب من أصدقاء العائلة.

وقد شفيت من الصدمة، إلا أن آثارها عادت فظهرت في مرحلة متأخرة من حياتها، والزمتها الفراش طوال أحد عشر عاماً.

* * *

كانت **جوليا**، في مطلع الشباب وأوج النشاط، حين انطوت صفحة القرن التاسع عشر، وانفتحت أبواب القرن العشرين، على جميع مصاريعها. البعثات الأجنبية تفد إلى لبنان وسوريا، والإرساليات التربوية تتدفق، حاملة أفكاراً جديدة وحاملة، للمرأة بالأخصّ، وعوداً بغد أفضل، يحررها من قيود كبلت يديها، وغلت

نشاطها، ويعيد إليها حقها الانساني، في التعلم، وإنماء الطاقات، والتطلع إلى أبعد ما يتوق إليه طموحها.

وكان في نفس الصبية، وغيرها من الصبايا، ظمأ قديم الى نهل المعرفة، والغرف من ينابيع العلم، وترسّم خطى من تقدمن، وسبقنهن فوق دروب التحول والتغيير.

وتأثرت **جوليا**، بهبوب هذه الرياح، إلا أنها، ظلت عميقة الارتباط بتربتها، وأرضها، وأصالتها.

وقد لازمها هذا الموقف الخلقي، في عملها المدرسي، ثم الصحافي فيما بعد، حتى ليصح فيها القول: «**كانت مربية الصحافة**».

ولم تتوجه المربية **جوليا**، إلى فئة دون أخرى، كما أنها لم تفرق، في كلامها، بين حق المرأة، وحق الرجل. كانت شمولية الوعي، عميقة التفكير، صريحة المواقف، وعفيفة الكلمة والمسلك.

هذه الصفات، وغيرها، من الخصال الحميدة، أبرزت **جوليا** الشابة، قائدة متميزة في مجتمعها.

وكانت هناك عينان تتبعانها بإعجاب، وتلاحقانها بإصرار العاشق الموله. هما عينا الشاب «**بدر دمشقية**» ابن العائلة البيروتية العريقة.

حاولت **جوليا** أن تتهرب من **بدر**، إذ كان من مذهب ديني غير مذهبها، ولم يكن قد حصل مرة، أن تزوجت فتاة، من المجتمع اللبناني الشديد المحافظة، شاباً من خارج مذهبها. لكن سلطان الحب كان الغالب، وارتفع صوته فوق كل صوت.

وكانت الخطبة «الفضيحة» التي هزت المجتمع البيروتي آنذاك، وأقامت الدنيا على الخطيبين اللذين زادهما رفض المجتمع، تقارباً ومحبة.

وهنا، لا بد لنا من وقفة تأمل، عند زواج أرادته **جوليا** رمزاً للريادة والتغيير، مثلها في كثير من أعمالها الفكرية والاجتماعية.

* * *

تزوج العروسان، وسافرا إلى أوروبا لقضاء شهر العسل فيها، وحين رجعا عن طريق. البحر، أصر العريس، أن ينتقل مع عروسه الباريسية الأناقة، في عربة خيل مكشوفة، تعبيراً عن فخره، وتحدياً لكل نقد.

وكانت تلك الرحلة القصيرة، من مرفأ بيروت، إلى منزل العروسين قرب الجامعة الأميركي، المواجهة الأولى **لجوليا**، مع مجتمع يرفض، من جميع جهاته، الزيجات المختلطة.

* * *

لكن الزواج، وحده، لم يكن غاية الصبية الطموح. كان حلمها أن تنشئ مجلة نسائية تتابع، عبرها، رسالتها الفكرية. وكان أول المتحمسين لهذا المشروع زوجها **بدر**. وهو لم يكتف بالدعم المعنوي والمالي، بل شاركها العمل الصحفي، بكل ما يتطلبه من جهد ومشقة. وتحول جناح كبير من المنزل الزوجي إلى مكاتب لمجلة «**المرأة الجديدة**». وقد صدر العدد الأول منها في شهر نيسان، عام ١٩٢١، كما تحول القبو تحت المنزل إلى مقر للطباعة.

«**المرأة الجديدة**» حملت إلى المجتمع اللبناني والعربي نفساً مميزاً إذ كانت تطل، من شرفتها المتواضعة، على العالم المحيط بها، من مصر إلى تركيا، ومن شواطئ المتوسط، إلى حدود الدجلة والفرات.

وجعلت شعارها العبارة التالية: «**إن الأمة نسيج الأمهات**»، كما عبرت عن غايتها، في مطلع كل عدد. فهي «**مجلة، غايتها بث روح**

التربية الاستقلالية، وتحسين الحياة العائلية وترقية المرأة العربية، علمياً وأدبياً واجتماعياً». كما كانت «**كتاب الأم، ومرشد الزوجة، ومرآة الفتاة، وسمير الولد**».

* * *

والتقتْ فوق صفحاتها، نخبة من الأقلام الفتية، والتي أصبح لها، فيما بعد، شهرة واسعة في دنيا الفكر والأدب.

أما المواضيع التي كانت تعالجها، فمتنوعة، من أدب وشعر، وتوجيه اجتماعي، وتربوي، وانفتاح على كل جديد في العلم.

هذا النشاط الثقافي، لم يكن محصوراً بحدود المجلة، بل كان ينبع منها، ليغذي الصالون الأدبي، الذي صار ملتقى أهل الفكر، والفن والسياسة والعلم.

وكانت **جوليا**، تدير الندوات، يشاركها زوجها، ويشجعها، بل يدفعها لتمضي في تسلق أرفع القمم. وكانت، في هذه الأثناء، قد أصبحت أماً لولدين: **سلوى (السعيد)** سيدة المجتمع المعروفة، ورئيسة لجنة مهرجانات بعلبك الدولية. **ونديم** الذي خدم لبنان سفيراً في عدد من الدول الكبرى.

والذي يتابع **جوليا** في مقالاتها الافتتاحية «**يا ابنة بلادي**» يلاحظ كم أن للأمومة من أثر في نفسها. فقد كانت ينبوعاً غزيراً، ينعش فكرها وعاطفتها. كما حولت قسطاً كبيراً من نشاطها التربوي، لتمارسه على أقرب الناس وأحبهم لديها.

ولا تزال **سلوى** تحتفظ بهدية قدمتها اليها أمها، لدى بلوغها السن الخامسة عشرة، وهي صورة يدين تنضمان في ابتهال، وقد كتب

تحتهما الدعاء التالي: «**أعاهد اللّه ونفسي، أن لا أقول، أو أعمل، أو أفكر في شيء أخاف من التصريح به، أمام اللّه والناس**».

* * *

كذلك كان **تأثير جوليا** الايجابي، عميقاً في نفوس طالباتها، وقارئاتها.

وإحدى الطرف، التي ترويها ابنتها، أن شاباً زحليًّا، قصدها ذات يوم، ليشكو اليها خطيبته. ولما سألته عن الدافع الى تلك الشكوى أجاب:

- أرجو، يا سيدتي، أن تفكي أسر خطيبتي. إن تأثير كلماتك عليها قوي إلى درجة، جعلها تعزف عن كل زينة، وتتقشف في مظهرها كراهبة. وأنا أحب أن تتزين عروسي وتتجمل.

ابتسمت له **جوليا** وقالت:

- إذهب، يا صديقي، وقل لعروسك أن تتزين، إذا كانت زينتها ترضيك، وتزيد في حبك لها، وقل لها أيضاً: أنا، نفسي، تغيرت منذ كتابة تلك المقالات الأولى.

* * *

وندرك أهمية التشديد على النزعة التقشفية، في كتابة **جوليا**، حين نفهم إلى أي مجتمع كانت تتوجه.

فهي تريد للمرأة، التحرر والاستقلال، لكنها كانت تؤكد على تحرير الفكر؛ فالحرية، عندها، مسؤولية وليست فوضى.

وبرغم ذلك، لم تسلم من النقد، وتهجّم الجماعات المتعصبة.

وكان نشر إعلان لجوارب نسائية، فوق ساق امرأة، كافياً، ليثير ضجة كبرى. وبالفعل، ثارت مثل تلك الضجة حين أعلنت تلك المجلة في أحد أعدادها عن جوارب «**هولبروف**» الشفافة.

كذلك، تعرضت **جوليا**، ورفيقاتها، في «**جامعة السيدات**» لحملات عنيفة، حين أسسن مركزاً للاجتماعات، واستقبال المدعوات من الخارج. ووصلت الحملة العدائية إلى حد، انقسم معه الرأي العام إلى فريقين. لكن موجة التحرر الفكري كانت أقوى من كل معارضة.

* * *

استمرت «**المرأة الجديدة**» في الصدور حتى العام ١٩٢٧، حين توقفت، لأسباب مادية، وهذا برغم توجهها إلى قرائها، في عددها الأخير، لينتظروا صدورها من مكاتبها الجديدة في «سوق اياس».. والعدد ذاته، كان يتابع حملة طريفة، بدأت في مصر، حول الطربوش والقبعة.. «**ولولا تدخل زعيم مصر الأكبر «سعد زغلول باشا»، وإبداء رأيه إلى جانب الطربوش، لقضي عليه قضاء مبرماً**».

لكن «**جمعية الرابطة الشرقية**» التي أثارت الحملة، تابعت استفتاء الأطباء فجاء قرارهم ضد الطربوش.

في عام ١٩٤٣، استقالت جوليا من الحياة العامة ولجأت إلى الفراش. ذلك أن الصدمة التي أصابتها، في مطلع الشباب، ظلت آثارها باقية في عمودها الفقري، وألزمتها الفراش إلى أن توفاها اللّه صيف ١٩٥٤ .

وفي عام ١٩٤٧، دعا «**الاتحاد النسائي**» إلى حفلة تكريم، أقيمت في دار الأديبة الرائدة، تم خلالها، تعليق وسام الاستحقاق المذهب

على صدر **جوليا**. فتقبلته بصمت، واصغت إلى الخطيبات، رفيقات الجهاد، يثنين على نشاطها وحياتها الحافلة بالعمل المثمر. ولما جاء دورها للكلام قالت: «**إبنتي سلوى، أوصيك بهذا الوسام. إنه وديعة وقتية، تسلمينها من بعدي، إلى أول من تعتلي منصة الخطابة، ممثلة عنكن، وعن نساء الأمة في المجلس النيابي.**

إنها وصيتي، يا سلوى. وشكراً، لكن، اخواتي، ووداعاً».

* * *

وقد حققت **سلوى** وصية والدتها، حين أصبحت السيدة «**ميرنا البستاني**» أول امرأة تدخل المجلس النيابي، فقلدتها الوسام الوديعة، خلال حفلة، حضرها حشد من الشخصيات.

* * *

بقي أن أشير، إلى أن هذه الرائدة المتميزة، **جوليا طعمة دمشقية**، تركت بصمات في نفوس المئات من نساء لبنان والعالم العربي.

وكانت دعوتها الإِيجابية، إلى الحرية والمساواة والعيش الكريم، والانعتاق من رواسب التقاليد البالية، خطاً ارتفعت فوقه المرأة، في مسيرتها التالية، وهو لا يزال مستمراً، في الأجيال الطالعة.

- المرأة الجديدة من عام ١٩٢١ - ١٩٢٦ .
- اديبات لبنانيات، املي ف. إبراهيم.
- من حديث خاص مع كريمتها السيدة سلوى السعيد.

ميّ زيَـاده



«لكني اعرف انك محبوبي، وأني أخاف الحبّ».

وضع قلمها النقطة الأولى على السطر، ثم جاءت بعدها الأقلام تُكمل المسيرة. كانت رائدة عملاقة، وشعلة مضيئة، وصوتاً متميزاً، أحدثت رنته العذبة تحوّلاً جذرياً في مسيرة المرأة. وهي، وإن لم تكن صاحبة مدرسة أدبية محددة، إلا أن قلمها، سطّر بأحرف عريضة بدءًا لمراحل هامة.

سوف يظلّ نورها مشعًّا، متألقاً، لا عبر كلماتها المضيئة وحسب، بل وفي الأمثلة التي غرستها تلك الكلمات، وكأن كل واحدة رمز لبدء جديد.

واليوم، وبعد انقضاء اكثر من مائة عام على ولادة مي زيادة، يظل القلم حائراً في العبور إليها، والإحاطة بشخصيتها، وتقدير قيمتها، وإعطائها حقها. هذا برغم صدور عشرات الكتب والدراسات، عن آثارها وعن شخصيتها وتأثيرها في مجتمعها.

ونذكرها اليوم، أكثر من أي وقت مضى، إذْ بتنا نُقدر قيمة تلك الشجاعة الأدبية، وقد دفعتها في مرحلة باكرة، لتواجه ظلماً لحق بالمرأة، منذ فجر التاريخ، فلا تكتفي بالإشارة إليه والتنويه به، بل تسعى، بكل ما لها من طاقات، لتحاربه، وتناهضه، وتدعو الى فكّ القيود التي كبّلت أيدي النساء، وكمّتْ أفواههن، وأقعدتهن عن التحرك الإيجابي، فبقين في المناطق السلبية من الوجود، يرافقن الرجل، كظل لا يترك أثراً من بعده أو صدى.

ونذكرها، شخصية قوية في محيطها، وقفتْ قامتها في مساواة قامة الرجل، بل الرجال، الذين تحلّقوا حولها، فشاركوا في ندوتها الفكرية، قارعوها الحجة بالحجة، أحبّوها، تفاعلوا معها، دهشوا من إقدامها وشجاعتها؛ أُعجبوا بسرعة خاطرها، بذكائها، بحلاوتها وسحر بيانها... امرأة، هي، لكنها جمعت في شخصيتها، إلى عذوبة أنوثتها، قوة فكرية وثقة لا تُبنى في أيام، بل تحتاج إلى خلفيات تسندها، وتعمق جذورها... فمن أين كانت، تلك النابغة المدهشة، تغرف ذلك الفيض الآسر؟... وأين يقع الينبوع الذي مدّها بذلك الغنى الفكري والروحي، على مدى سنوات التوهّج والتألّق من حياتها؟...

* * *

لا بد من العودة الى اطلالتها الأولى: فقد ولدت **ماري الياس زخور زيادة** في الناصرة، عاصمة منطقة الجليل في فلسطين. تاريخ مولدها الحادي عشر من شهر شباط عام ١٨٨٦ . ودرست في مدرسة ابتدائية فيها، قبل أن يرسلها والدها إلى معهد «**عينطورة**» الداخلي في لبنان، موطنه الأصلي. قضت في المعهد خمس سنوات تلتْها «بضع سنوات من السأم» لدى رجوعها الى الناصرة. لكن العائلة لم تلبث أن انتقلت الى **القاهرة**، حيث انفتحت للفتاة أبواب عالم جديد، حمل اليها تحدياً كبيراً، ودفعها الى السعي الحثيث، كي تثبت وجودها. هذا، فيما كان أبوها يتلمّس طريقة بين زحمة الصحف المصرية، فأنشأ مجلة «**المحروسة**».

وفي تنقّلها كتبت مي تقول: «**ولدتُ في بلد، وأبي من بلد،**

وأمي من بلد، وسكني في بلد. وأشباح نفسي تنتقل من بلد الى بلد. فلأي هذه البلدان أنتمي، وعن أي هذه البلدان أدافع؟».

* * *

في الحقيقة، لم تكن هناك مشكلة برغم هذه التساؤلات في المراحل الأولى من حياة الكاتبة، إذ إن غربتها كانت حافزاً زادها طموحاً، واستنفر طاقاتها الكامنة، لتثبت وجودها في المجتمع الجديد، حيث بدأت طالبة نهمة، ثم مدرّسة، فيما كانت تمرّن قلمها، وتنشر مقالات وأشعاراً، بالفرنسية حيناً، وبالعربية في معظم الأحيان، وتحت شتى الأسماء المستعارة؛ فقد حملت مقالاتها التواقيع التالية: **إيزيس. كوبيا. عائدة. شجية. كنار. السندبادة البحرية الأولى. مدموزيل صهباء. خالد رأفت** ثم **الآنسة مي**. وقد استقرّت عليه نهائياً، وتشرح لجبران في إحدى رسائلها فتقول: «**أمضي ميْ بالعربية، وهو اختصار اسمي، ويتكون من الحرفين الأول والأخير من اسمي الحقيقي، الذي هو ماري، وأمضي إيزيس كوبيا بالفرنجية، غير أن لا هذا اسمي ولا ذاك، إني وحيدة والديّ وإن تعدّدتْ ألقابي**».

كانت هذه الرسالة بدء مرحلة التراسل بين الكاتبين، المتحابين، برغم بعد المسافة الجغرافية، واستحالة اللقاء... لكن العلاقة الغريبة التي جمعت بين روحيهما، تركت ثماراً طيبة، وثروة من أدب التراسل الراقي. كما أبقت تلك العلاقة الغامضة المرسومة بين مي وكل من هام أو أُعجب بها، من كبار الكتاب والمفكرين في عصرها...

فالفتاة التي دخلت المجتمع المصري، بتردد وخجل، لم تلبث أن راحت ترسّخ فيه قدميها، عبر قلمها، وقد غرست الشتلة الأولى في

ديوانها الفرنسي «**أزاهير حلم**» وصدر لها تحت اسم مستعار، وراحت الأقلام تتساءل، وهي تتناوله بالتقريظ: **من تكون صاحبة الصوت الجديد؟**... وأثار كتابها جدلاً، في المحافل الأدبية، مما دفع صاحبته الى ان تضاعف نشاطها واندفاعها. وتكوَّنَتْ لديها قناعة، بأن ما يلزمها هو تقوية لغتها العربية، وقد تعهدها، في المراحل الأولى أستاذ اللغة «**لطفي السيد**» فقوّم لغتها، كما ساهم في توجيهها الفكري والأدبي.

وهنا، لا بد من التنويه بما لمحيط مي العائلي من فضل على تقدمها، وتفتّح مواهبها، إذ نشأت في أسرة راقية، محاطة، بل مغمورة بالعاطفة والإِعجاب. فهي وحيدة أبويها، وقد فقدا أخاً لها في الطفولة، وبقيت ذكراه في وجدان الكاتبة، وقد فجّرت حنينها، في مقال رقيق، وهي تلتفت الى الوراء، والى البلد الحبيب الذي هجرته.

* * *

هذا الغذاء العاطفي والفكري، كان الخميرة التي بها اختمر كيانها. وازدادت ثقتها بنفسها، وبإمكاناتها فراحت تفجّرها، وهي تلتهم العلم، والمعرفة، من كل باب. ساعدها في توسيع آفاقها الفكرية إلمامها بعدة لغات، فإلى جانب العربية والفرنسية، درست وأتقنت: الانكليزية، الألمانية، الإِيطالية، الأسبانية، اللاتينية، السريانية واليونانية القديمة. وكانت كل واحدة من تلك اللغات، سبيلا يوصلها الى منابع الحضارات المتعددة، مما ساعدها في نقل آثار من تلك الحضارات الى العربية وخصوصاً عن الفرنسية والألمانية، والانكليزية.

وان هذه الأبواب المشرعة في وجهها، كانت مداها الرحب،

المفتوح على الكون، يرفدها بكل جديد في مجالات العلم، والفكر والفن. وكانت تغرف من تلك المنابع الملونة، فتتلوّن بها كتاباتها، وتطعّم أفكارها، وتربطها بالكون، متفلّتة من الحدود الضيقة، التي تحدّ الإِنسان، وتضيّق أفقه، وتجمّد نموّه وتطوّره.

* * *

ومثلما فتحت نوافذها على رياح الكون، من أي جهة هبّت، فإن الأديبة، في أوج نضجها، فتحت صالونها الأدبي، في وجه أدباء زمانها ومفكريه، فكان ذلك الجديد «**ندوة الثلاثاء**» ساحة حرّة، يتسابق اليها الشعراء، حاملين قصائدهم، ويدلف اليها المفكرون، هواة الجدل والمناقشة، ويقصدها الأدباء فيشاركون في إخصاب الحقبة الذهبية الفريدة في تاريخ الأدب المعاصر.

وإن الأسماء التي كانت تحيط بدائرة مي جميعها أسماء علم... منهم: **اسماعيل صبري، لطفي السيد، شبلي شميّل، خليل مطران، وأحمد زكي باشا.**

كذلك كان بين روّاد الندوة **أحمد حسن الزيات وأحمد شوقي والأمير مصطفى الشهابي وعباس محمود العقاد ومصطفى الرافعي وأنطون الجميل ويعقوب صرّوف وولي الدين يكن وطه حسين وجرجي زيدان وسلامة موسى وزكي مبارك** وسواهم من كبار الشخصيات الفكرية والأدبية... وقد ورد ذكر الندوة في كتابات الكثيرين منهم. كما أن آثارها فيهم بلغت حدّاً بعيداً، خصوصاً تأثير صاحبة الندوة، الصبية الحلوة، الجذابة، ذات الصوت الساحر، والحضور الآسر، والشجاعة والظرف وخفة الظل. ويصف **العقاد**

إدارة مي لصالونها فيقول: «**كان ما تتحدث به مي ممتعاً كالذي تكتب بعد روية وتحضير، فقد وهبت ملكة الحديث في طلاوة ورشاقة، وجلاء، ووهبت ما هو أدلّ على القدرة من ملكة الحديث وهي ملكة التوجيه وإدارة الحديث بين مجلس المختلفين في الرأي والمزاج والثقافة والمقال**»...

وهو يحصي من رواد الندوة ثلاثين اسماً، بينهم امرأة واحدة هي **ملك حفني ناصف** (باحثة البادية).

ويعبّر **إسماعيل صبري** شعراً عن أهمية الندوة في قصيدة منها:

«روحي على بعض دور الحيّ حائمة كظامئ الطير حواماً على الماءِ
إن لم أُمَتِّعْ بميّ ناظريَّ غداً أنكرتُ صُبْحَك يا يومَ الثلاثاءِ»

كما وردت حكايات كثيرة عن وله بعض الحضور بصاحبة الندوة، وهناك من تغزّل بجمالها، وبذكائها، وخير من عبّر عن ذلك الإعجاب **أحمد شوقي** ومن قوله:

«أُسائلُ خاطري عما سباني أَحُسْنُ الخَلْقِ أم حسنُ البيانِ؟
رأيتُ تنافُسَ الحسنينِ فيها كأنّهما لميَّة عاشقان»

* * *

والأديبة، كانت خطيبة من طراز نادر، ومن أولى وقفاتها صبية، حين اختيرت لتلقي كلمة بعث بها **جبران** لمناسبة تكريم **خليل مطران**. ولطه حسين شهادة فيها قال: «**لم يرضَ الفتى عن شيء مما سمع، إلا صوتاً واحداً سمعه فاضطرب اضطراباً شديداً، وأرق له ليلته تلك. كان الصوت نحيلاً ضئيلاً، عذباً رائعاً، لا يبلغ السمع حتى ينفذ في خفّة الى القلب فيفعل به الأفاعيل...**».

وسحر حضورها، وصوتها، وبيانها لم يفارقها، حتى في تلك المعركة الأخيرة، التي خاضتها على منبر «**وست هول**» في الجامعة الأميركية، بتاريخ ٢٢ آذار سنة ١٩٣٨، ولمدة ساعتين. وكانت محاضرتها وموضوعها: «**رسالة الأديب**» شهادة ساطعة ضد ظالميها، وتأكيداً على سلامة عقلها، وبراءة انعتاق من أسرٍ كبّلها طوال ثلاث سنوات، حين اتهمها أقاربها بالجنون، وأدخلوها مستشفى الأمراض العقلية (العصفورية) قسراً. وعرفت فيه من العذاب ما شيّب شعرها، وحفر أحزاناً وآلاماً في كيانها، ظلّت رفيقتها حتى النفس الأخير، بل كانت السبب الذي قرّب نهايتها الأرضية.

* * *

ولم ينحصر نشاطها في الكتابة والخطابة، إذ إن وعيها كان متصلاً بكل القضايا العصرية، الفكرية منها والسياسية... وبالطبع، كانت قضية المرأة من أهمّ ما شغلها، خصوصاً وأنها كانت الصوت الجديد، الذي تتردد أصداؤه في شتى أصقاع الكون. فالنهضة النسائية التي بدأت في أوروبا وأميركا، والصوت الداعي الى تحرير المرأة ومساواتها كان قد بلغ أسماع الشرقيات والعربيات. وأول من رصده صاحبات الأقلام، والواقفات في مراكز القيادة النسائية. ومدّت **مي** يدها الى يد سيدة حملت نبراس التحرر وسارت في طليعة الركب، وأعني **هدى شعراوي**. واستوعبت جيداً دعوة **قاسم أمين**، مناصر المرأة. واتصلت برائدات في لبنان وسوريا والعراق وحتى في تركيا وإيران، فالدعوة النسائية، في زمانها، كانت مشرقية، وهمّ المرأة هو واحد، في كل من تلك البلدان. ولم تكتف **مي** بنشر مقالاتها حول قضية المرأة في المجلات، بل كتبت عن الرائدات، من سبقنها، ومن عاصرنها؛

فأخرجت **وردة اليازجي** من غبار النسيان، ورسمت شخصية **عائشة تيمور** في كتاب، وسلطت الأضواء على كتابات **ملك حفني ناصف**. بل خصصت لها كتاباً، رسمت فيه لوحة متكاملة لتلك الشخصية الراحلة في أوج العطاء.

ولم تكن **مي** متعصبة لبنات جنسها تعصباً أعمى، بل نظرت الى وضع المرأة من الزاوية الإِنسانية. وخبرت، عبْر تجربتها الشخصية وتأملاتها ومطالعاتها، بأنه ليس هناك عائق طبيعي، يحدّ من انطلاق المرأة، وتقدمها، وبلوغها المراتب الرفيعة في العلم والعمل، إذا أُفسح لها في المجال، وأتيحتْ لها الفرصة.

* * *

والمرأة التي عرفت المجد العظيم، وتوهج النجاح، والتألق على أكثر من صعيد، عرفت كذلك، الألم الكبير حين بدأت شمسها تميل الى الغروب. وتفرّق من حولها الصحب والأحباب. وانتقل الوالدان المحبان، الى دار البقاء. وبين الغيابين، انقطع الخيط السحري الذي يصلها بتلك النفس الحبيبة خلف البحار: **جبران**، حبّها الغامض الغريب... وتلفّتت حولها، فإذا الساحة خالية، من معجبي الأمس، الذين كانوا يتسابقون لكسب رضاها. للحصول على بسمة رضى، أو كلمة عذبة. وصادف ذلك كله وهي تعبر الجسر الواهي: منتصف العمر. لكنها استمرّت في الكتابة، وفي المكابرة، وفي الإِيمان بأن «**النفس القوية**» تزيد بهاء بعد التغلّب على الكروب. والعين الجميلة تزيد تألقاً بعد سكب الدموع...

ولم يتركها الآخرون تسكب دموعها بحزن مستساغ، إذ دخلوا

على خط حياتها، وراحوا يهزّون أعصابها، ويتلاعبون، كالرياح الشرسة بأغصانها وفروعها.

استنجدت بالطبيب القريب، فأخذ الشكوى حجة ضدها، وألّب عليها القوى، وأقام القوانين من تحت تراكم الغبار، وعلّقها أثقالاً في عنقها، ورماداً في عينيها... وحملوها متهمة، الى مصح الأمراض العقلية، بعدما أغروها لتوقع على أوراق تدينها، وتتهمها بالقصور العقلي.

ويا مي!...

غلطة الشاطر بألف... وكلفتها ثقتها بالأهل، وبني العم، ثلاث سنين من عذاب الجحيم، إلى أن قامت قيامة الصحافة، والرأي العام، وكانت حملة قامت بها «**المكشوف**» مجلة الفكر والأدب الأولى في لبنان. ثم بادرت الأقلام الى الدفاع عن إحدى أكبر أديبات الشرق. وكأن التهمة تشمل كل من حمل القلم، ودافع عن الحق. وانتصر الحق أخيراً. وخرجت **مي** بريئة، مكرّمة، ومعزّزة، في مهرجان أدبي، كانت هي نجمته الأولى.

* * *

لكن صدمة من هذا الحجم، لا يغسلها الصابون، ولا تمسحها كلمات العزاء. راحت الجمرة تتغلغل أعمق، في أحشائها، وتحفر لها مكاناً، وتوسّع الحفرة.

وحين عادت الى القاهرة، ظلت تعيش في عزلة، منصرفة الى التأليف، والتأمّل في الحياة، ومعنى الوجود. وكان الجسم ينحل، ويضعف، تدريجياً، الى أن رزح نهائياً، ولم يعد يقوى على الدفاع.

وفي التاسع عشر من شهر تشرين الأول، عام ١٩٤١ وافَتْها المنية في القاهرة.

رحلت ميّ الإِنسانة، وبقيت مع آثارها الخالدة، أمثولتها الفريدة، وذلك الصدى نسمعه في بثٍّ موجع لقلمها الشاعر: «**خذوني الى قريتي الصخراء الشجراء، الراقدة تحت حنايا الأفق، على هدهدة الناي. لستُ أطلب من أرضي إلا القليل من التراب. إن المساء يرجع بالكل إلى البيت**».

- باقات من حدائق مي - فاروق سعد.
- مي زيادة، التوهج والأفول - روز غريب.

باحثة البادية



«إنها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر..»

«**هي ملك هانم، كريمة اللغوي المحقق المرحوم حفني بك ناصف الذي شغل المناصب العالية في وزارة المعارف والقضاء...**» هكذا تقدم **مي زيادة** لسيرة زميلتها، وصديقتها، الكاتبة والمصلحة الاجتماعية المصرية التي ذاع صيتها في الربع الأول من القرن العشرين، وكانت سيدة نابغة، وإنسانة شديدة الوعي، مرهفة الحس، غيورة على مصلحة وطنها، وعلى وضع المرأة في المجتمع المصري، بل وفي الشرق عامة. **ولميْ** فضلٌ كبير في تخليد اسم هذه السيدة الكريمة، التي لم تُعْطَ الفرصة كي تبلغ بطموحها ومواهبها مرحلة التحقيق الكلي، إذ توفيت وهي في ذروة صباها، وفي عنفوان عطائها. وجاءت **مي**، فشاركت في الحفلات التذكارية والتأبينية، وكتبت في الصحف والمجلات، مبشرة بفضل السيدة الكبيرة، ثم انتقلت إلى خطوة اعمق أثراً، حين ألفت كتاباً ضمنته سيرة **ملك** بعنوان اسمها الأدبي المستعار «**باحثة البادية**».

* * *

فَإِذاً، لا نستطيع أن نعبر إلى التعريف بشخصية «**الباحثة**» من دون المرور في هذا المعبر الجامع، الرصين والذي اعتبره النقاد، حال صدوره، من آثار **مي** الخالدة. وقبل المضي في سرد سيرة **ملك ناصف** لا بد من تحية تقدير، واعتراف **لمي** بسمو الخلق، والترفع عن الأمور

السطحية العابرة، والاخلاص والوفاء، ثم بتلك الحماسة المتقدة في ذاتها، والتي أبقت أدبها حياً، يزداد توهجاً مع مرور الزمن.

ولدت **ملك** في القاهرة، في الثاني من شهر كانون أول عام ١٨٨٦ . وتلقت دروسها الابتدائية في مدارس مختلفة ثم دخلت المدرسة السنية، حيث حصلت على شهادة ابتدائية عام ١٨٩٣، وهي أول سنة تقدمت فيها الطالبات المصريات لامتحان تلك الشهادة. بعدها انتقلت إلى القسم العالي، من المدرسة ذاتها، وحصلت على الشهادة العالية عام ١٩٠٠، وباتت مؤهلة لممارسة التعليم. وقد عملت أستاذة في مدارس البنات الأميرية مدة أربع سنوات، تعرفت بعدها على **عبد الستار الباسل**، وجيه قبيلة **الرماح** في **الفيوم**، واقترن بها.

هذا باختصار، ما تورده **مي** في كتابها، ونفهم، من بين السطور، أن عائلة **ملك** كانت راقية، خصوصاً الأب الذي علم بناته، في تلك الفترة الزمنية، حين كان البيت، هو المقر الذي تلازمه الفتاة، منذ الولادة وحتى الوفاة. وللأب كذلك، يعود الفضل في تشجيع ابنته، للوقوف على المنابر، وإلقاء الخطب، والكتابة في الصحف والمجلات، وإطلاق رأيها، بجرأة، وبلغة متينة، وأسلوب جذاب مميز جعلها تبرز، خلال فترة وجيزة، فتصبح رائدة وقائدة في مجتمعها، ومثالاً تتمنى كل فتاة أن تقتدي به.

* * *

أما قصة تعرفها **بمي** فلا تخلو من الطرافة، ولا بأس من إثباتها، إذ تشكل الخلفية التي بنيت عليها الصداقة بين الكاتبتين.

كانت الطريقة السائدة بين الكتاب والكاتبات، التراسل عبر الصحف، وعلى صفحات المجلات، دارت مناقشات، وطُرحت قضايا عديدة. وكان بين **مي** و«**الباحثة**» وسواها من أديبات تلك الحقبة، مراسلات، وأسئلة وأجوبة. وذات يوم، أضاعت **مي** ساعتها، فكتبت مقالاً طريفاً ترثيها فيه، وتستخدم المناسبة، لتطرح عدة افكار فلسفية في مفهومها للزمن، وعلاقته بالإِنسان. وقرأت «**الباحثة**» المقال، فأعجبها، بل حرّك في أعماقها عاطفة فجرتها بالكلمات، ومن جملة ما جاء في الرسالة: «**إني وجدت ساعتك المفقودة والتقطتها. رأيتك ترثينها بحرقة، فجئت لأمسح دموعك لأني أحب دائماً أن أمسح دمعة المحزون. تعالي إليّ لتأخذيها فإنها أحست بشوقي لرؤيتك فأتت تقدمةً لمجيئك وتعارفنا. عثرتْ عليّ، وعثرتُ عليها، لتؤكد لك أنك وجدتِ الصديقة التي لا تخون**».

* * *

هذه الرسالة نُشرت في مجلة «**المحروسة**» وقرأتْها **مي**، فاستجابتْ للدعوة، ومضت لزيارة **ملك**: «**ذهبتُ إليها والشفق يُضرم ناره في قلب الأفق، والسحب قد انقلبت هنا لهيباً، وهناك أنواراً وهنالك ألواناً...**».

وتتساءل الكاتبة، إذا كان القدر، قد هيأ هذا اللقاء، ليدفعها فيما بعد، إلى حمل القلم، والكتابة عنها؟...

الخلاصة، أنه كان لقاء في غاية الانسجام، ولا تفوت **مي** لحظة من دون أن تذكرها، ولا كلمة إلا وتسجلها. حتى ملاحظاتها على هندسة الدار، وأناقة الفرش، وهندام ربة البيت، وحركاتها وإشاراتها. كلها مسجلة بدقة، مما يشير إلى الاهتمام الكبير الذي كانت تعلقه على تلك المناسبة... **فـ** «**مَيّ**»، التي كانت، جالسة في قاعة الانتظار، كان التساؤل يغلي فوق لسانها: «**أهذه المرأة، التي سأصافحها بعد هنيهة، هي هي الباحثة التي تنشر على الناس أفكارها؟.. أم صدق الزاعمون أن ليس لها من فصولها إلا التوقيع كما هي الحال عند بعض السيدات الشرقيات اللائي تعمّدن التظاهر بالتفكير والتحبير؟**»...

* * *

إذاً، الزائرة ليست هنا لغاية التعارف الاجتماعي وحسب، بل إنها تنقل معها السؤال الكبير، إذ كانت تحمل، بين منكبيها، هموم المرأة، وقضاياها المطروحة للبحث والمناقشة.

لكن **الباحثة** لم تنجح في الامتحان، وحسب، بل سحرت زائرتها وحولت الفرصة إلى بدء صداقة وثيقة، استمرت حتى بعدما غيبها الموت.

منذ الوهلة الأولى، كان هناك انسجام مطلق، بين الكاتبتين: «**كان هتافها الأول هتاف ترحيب، وكلمتها الأخيرة كلمة حب**». وسجلت ملاحظات اللقاء الأول فلم يفتها سحر **الباحثة**، الرنة العذبة في صوتها، أفكارها السامية، عمق نظرتها، فصاحة لغتها، وسعة

إلمامها بالشعر والحكم والأقوال المأثورة. ثم إنها ذات شخصية اجتماعية مميزة بروح المرح، وسرعة الخاطر، و«**إن لهذه المرأة، كما لكل من الأفراد النوابغ، شخصيات متعددات تظهر كل منها في حينها...**».

وتمضي في وصفها لتقول: «**إنها تنتقل من حالات المرح، والضحك الرنان كضحك الأطفال، إلى الكآبة والألم. أجل، هي امرأة تألمت، لكنها تخفي آلامها خلف هذا البرقع الشفاف. ذلك لأن مزاج باحثة البادية العصبي الصفراوي وجنسها النسائي، وقوة عواطفها وحدة ذكائها، ذلك كله كان مشتركاً في تكوين طبيعتها السريعة الانفعال...**».

و**مي** أوَ لم تكن من هذا المزاج؟

طبعاً، هي لا تتوقف عند الوصف الشخصي، والتحليل النفسي، بل تمضي، متابعة دراستها الشاملة لشخصية **الباحثة**، والتي جزأتها إلى ستة أجزاء: فهي المرأة، **المسلمة**، **المصرية**، **الكاتبة**، **الناقدة** و**المصلحة**.

هذه أهم الصفات البارزة في شخصية «**الباحثة**» ولا ضرورة لأن نتوقف عند دورها كزوجة وأم؛ فقد نجحت في الدور الأول. لكنها لم تحقق حلم الأمومة، وهذا ما جعلها تتطلع خارج إطار المنزل والعائلة فتنشر اهتمامها في مجتمعها، وتعطيه من نفسها وعاطفتها.

وصورة المرأة، كانت بارزة في شخصية **الباحثة**، وهي لا تحد في حدود جسدها، وعالمها الداخلي، بل تمتد لتتصل بالكيان النسوي في

وطنها، إنها متحمسة ثائرة لبنات جنسها، تُحاول، جاهدة، أن تفتح عيني المرأة على ما يلحق بها من غبن؛ وقد سجلت ذلك في مقالات نشرتها في عدة صحف. ثم نشرتها في الكتاب الوحيد الذي صدر لها وعنوانه «**النسائيات**». وهو المرجع الأهم لعطائها وفكرها، ومواقفها. وكانت **الباحثة** شديدة الاحساس بوضع المرأة الزوجة، وسوء المعاملة، بل الظلم، الذي يلحقه بها الزوج في الكثير من الحالات. كتبت في ذلك، بجرأة، هاجمت الأزواج الظالمين، بل تصدّت للقوانين المجحفة بحق المرأة خصوصاً حين يُساء تفسيرها واستخدامها. وتعمّقت في مفهوم الزواج، وقد رأت فيه محبة وانسجاماً وتآلفاً بين الرجل والمرأة، وعلاقة منزهة عن الطمع بالمال والجاه والاغراء الدنيوي. وإذا كانت تضع اللوم على الرجل، لأنه، في حينه، كان الأقوى والأوعى، بينما كانت المرأة ترسف في قيود تحدد سعيها وتشل طموحها، إنما ذلك لا يمنعها من انتقاد المرأة الضعيفة الخانعة. أرادتها أن تنهض، تنمي طاقاتها، وتغتنم كل فرصة كي تحقق إنسانيتها.

تؤكد **مي أَنَّ الباحثة كانت مسلمة، مؤمنة، شديدة التعلق بدينها.** ومن خلال الدين تكتب، وتبحث، وهي تستوحيه في أدبها السياسي والاجتماعي، والخلقي. وإنها، إذ تدعو المرأة إلى النهوض، وفك القيود، فهي تريدها أن تفعل ذلك، من خلال فهمها لجوهر الدين. وقد دخلت في تفاصيل أدق، إذ بحثت مسائل الزينة، والأزياء فحددت ما يجوز وما لا يجوز ارتداؤه. كذلك لا تُبعد الدين عن السلوك اليومي، وعلاقة المرأة برجلها: «**هناك امرأة تقول لزوجها:**

حضرتك وسعادتك، فما هذا التكلف البارد؟ إننا بتسميتنا فلاناً صاحب العزة وتلقيبنا أحد الملوك بصاحب الجلالة لنكفر ونلحد. فما صاحب العزة وذو الجلالة إلا اللّه الواحد القهار». إلى أن تمضي فتقول: «ألا فلينتبه الرجال، وليتقوا اللّه في نسائهم وليعلموا أن التقوى مطلوبة في السر والعلن وان اللّه يرى». وهكذا اختلطت لديها العاطفة الدينية بالمعاني القومية والاجتماعية.

* * *

وتلتقي في شخصية **باحثة البادية**، مصريتان:

واحدة مصرية بطبعها وظرفها وروحها المرحة وخفة ظلها.

والثانية مصرية بوطنيتها.

وكانت حماستها المحرك الدافع إلى التقدم والرقي.

أمّا روح الظرف فمطبوعة فيها، تشهد على ذلك كتابات لها، كما يشهد أصدقاؤها، وروّاد مجالسها، و«**خفة الروح ترفرف على جميع سطورها...**» وهي كذلك حتى في نقدها لشتى الأوضاع الاجتماعية. وتقول في نقدها للحبَرة العصرية: «**إن نصف إزارنا السفلي مرط.. أما نصفه العلوي فهو كالعمر كلما تقدم قصر، أما البرقع فأشف من قلب الطفل...**» وفي مجال آخر: «**يقول لنا الرجال ويجزمون: إنكن خُلقتن للبيت، ونحن خلقنا لجلب المعاش. فليت شعري أي فرمان صدر بذلك من عند اللّه؟**»...

أما **الباحثة** الوطنية فلم تكن تهتم كسواها، بهموم الشرق، الذي كان يشغل الكتاب والمفكرين، في زمانها، ومنهم مي **وأحمد شوقي**

وسواهما؛ بل كان اهتمامها ينصب على المصرية... إنها تحب كل ما هو مصري، وتتعصب له، وتدافع عنه، وتلفت إلى معالم الجمال، في الإِنسان وفي الطبيعة، وتوقظ القارئ على حسنات لم يتنبه لها، وربّما شغلَهُ عنها التفاته إلى الخارج. حتى أنها تنتقد بشدة زواج الشباب المصريين **بفتيات** أجنبيات، وتدعوهم إلى تقدير المزايا المصرية التي تتحلى بها فتيات بلادهم.

أما الكاتبة، فيقول عنها **أحمد لطفي السيد: «انها أكتب سيدة قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر»**، وذلك في تقديمه لكتابها **«النسائيات»**. بينما يقرّظها **حافظ إبراهيم** شعراً فيقول: «للّه درّك إن نثرت / ودر حفني إن نثر».

وإلى جانب شهادات كبار الكتاب والشعراء هناك أعمالها شاهد على نبوغها. لكن اللّه لم يمد بعمرها، كي تتابع مسيرتها، وبقي أثرها، قليلاً على تميزه. وشهادة ساطعة على تفوقها... أو كما تقول **مي**: **«لا أعرف من هو أقدر منها على وضع الكلمة في مكانها، بحيث أنك لو تعمدت حذف لفظة من جملة كنت باتراً مجموع المعنى»**.

وكانت كلمتها نابضة بالحياة، مشحونة بالحرارة المتدفقة من قلب كبير، وعقل نير، وحس مرهف. وبما أن **الباحثة** كانت خطيبة، إلى جانب كونها كاتبة المقال، والبحث والنقد، فإن نسبة كبيرة من أعمالها، مكتوبة لتلقى من على المنابر، أي بالنفس واللهجة والأسلوب الذي يميز أدب الخطابة.

وقلّما كتبتْ لنفسها، فقد كان معظم إنتاجها، موجهاً إلى

الآخرين: إلى الرجل، إلى المرأة، وإلى الطفل والفتاة الناشئة... إنها مُصلحة وهذا دور لا تحيد عنه، في خطوة واحدة من خطاها.

* * *

وهي ناقدة طبعاً، ولا تنسى ذلك ولا يغفل عن بالها. وفي كل ما كتبت، يبقى الحس النقدي هو الغالب، بغض النظر عن الصفات الأخرى التي تميز أدبها. وكانت تنتقد كل ما تجده منافياً مفهومها وذوقها. وإن احتكاكها بجميع الطبقات، وخصوصاً النسائية منها، جعلها تتحسس في العمق، المشاكل التي تبقى في الظل، وقلما تُطرح للبحث، أو تتناولها أقلام الرجال. وهي لا تكتفي بدور الناقدة الواقفة بعيداً عن موضوع نقدها، بل تتابع الرسالة، وتقترح ما تراه مناسباً، للإصلاح، وتبديل الأوضاع، من خلال قلمها: «**المرأة المصرية مسلوبة الحق ومظلومة في كل أدوار حياتها. نراها يُتشاءم منها حتى وهي جنين...**».

طبعاً، يتركز نقدها الاجتماعي على أحوال المرأة، إذ رأت فيها الموضوع الأخصب، إن لجهة النقد، أو الإصلاح. ويبقى الزواج، نقطة التركيز في اهتمامها، حتى أنها في أحد فصول كتابها، تضع شبه قواعد لسلوك الزوجين، كما تعدد أسباب التعاسة الزوجية، ومن ثم تنتقل إلى انتقاد الأب الذي يظهر بمظهر الجبار المتكبر ويتسبب بالتالي في اضعاف أخلاق أطفاله، إذ يربي فيهم الجبن والذل، ثم الاستبداد متى كبروا.

* * *

أما المُصْلِحة في كيان **باحثة البادية** فلا تنفصل عن الناقدة؛ وهي التي لا توجه النقد، في سبيل ذاته، بل تتوخى من ورائه تغيير الأحوال، وإصلاح الأمور. إذاً، فإن غايتها صريحة، وتحاول أن تكون عادلة، فهي لا تتحيز للمرأة ضد الرجل، أو العكس، بل تقف مع الحقيقة، ومع الحالة الفضلى التي تسوق إليها من تخاطبهم. وقد وجدت في الكتابة والخطابة الوسيلة الفضلى لشرح غايتها، ورسم الطريق الجديد.

في الواقع، انها حاولت أن ترسم معالم الطريق، بل سنّت شرائع تتألف من عشرة بنود، تضم في مجملها إصلاحات تربوية، إذ كانت مؤمنة بأن الأساس الصحيح يتكون في نواة التربية الصحيحة. وتنطلق، من القاعدة التربوية، فيما بعد، لتحدد اقتراحاتها للإِصلاح الاجتماعي، وقد تقدمت كذلك بعشرة إقتراحات جريئة بالنسبة الى زمانها. وفي كل ما كتبت، يبقى العلم «**منور العقل على أي حال، سواء عمل به أم لم يعمل**».

* * *

لا عجب، بالتالي، إذا أطلقت **باحثة البادية** صرختها الجديدة في سماء مصر، داعية الى **الإِصلاح** وتحسين أوضاع المرأة والعائلة، فقد كانت الأجواء معدة بفضل مصلح رائد، مهد للنهضة بكتابه الجريء، «**تحرير المرأة**» ثم أمسك بيدها، ووقف في صفها، ينصرها وهو يتطلع إلى الغد، ويتأمل صورة المجتمع الجديد الذي يدين له بالكثير؛ إنه **قاسم أمين**، الرجل الذي كان سباقاً في كل ما قال وكتب.

وتلتقي معه **باحثة البادية** في الكثير من أفكارها، وآرائها، خصوصاً **«بوجوب إصلاح المرأة وفتح أبواب التعليم أمامها وجعل التربية متوفرة لها...»** كما يتفق المصلحان الرائدان في آرائهما حول تحسين شؤون العائلة، والأحوال الزوجية. ولا نعلم ماذا كان يمكن أن تفعله رسالة إمرأة في مكانة **الباحثة**، لو بلغت بأفكارها مدى أبعد، فالقدر لم يوفرها؛ إذ أصيبت بالحمى الاسبانيولية، وتوفيت في القاهرة ليلة الخميس في ١٧ تشرين الأول، عام ١٩١٨ . لكن البذرة التي غرستها لا تزال مستمرة في أجيال من النساء؛ كما أن اسمها سوف يبقى خالداً ما بقيت كلمات صديقتها الخالدة **مي**.

- باحثة البادية - مي زيادة.

مَـاري عجمي



«إن امة هان على ابنائها بذل الدماء، لا يصعب عليها الانتصار في ميادين العمل».

اسمها يمر أحياناً في الذاكرة. ربما يكون عالقاً بها من أيام الدراسة، من قطعة أدب مختارة في كتاب القراءة، أو قصيدة وطنية تتغنى فيها بتراب الوطن، وتشيد بالإِنسان العامل من أجل بناء ذلك الوطن.

ولكن، هل يحمل إسمها، أي معنى الى الأجيال الناشئة؟ هي ورفيقات لها من رائدات النهضة الأدبية، النسائية... المناضلات في صفوف الوطنيين، على دروب التحرر، حين كان النضال، تلك الشعلة التي تنير السبل، وتشحذ الهمم، وتجمع النفوس والقوى، وتشحن الطاقات، في سبيل البناء والعمران...

في ذلك الزمان البعيد، حين كان التحدي كبيراً.

* * *

ويبقى اسم **ماري** علامة فارقة بل ومميزة، في مسيرة النهضة العربية، في أي بلد كانت. فهي تقف في صف **هدى شعراوي** (مصر) **ومي زيادة**، الأدب، **وجوليا طعمه دمشقية**، الصحافة... وسواهن من صاحبات اليقظة المبكرة، والوعي النيّر، حاملات مشعل العلم والتقدم، في العالم العربي، من دون التفرقة بين بلد وآخر.

وميزة هذه الكاتبة، عن سائر الرائدات المعاصرات، أن قدرها وضعها لفترة من الزمن، هي مرحلة تفتح الصبا، وضعها في صميم معركة النضال الوطني، في بلادها. وقد خاضت عملياً دروب الكفاح

واطلعت، عن كثب، على المعاملة السيئة التي لقيها الوطنيون، على أيدي المستعمر، والتي بلغت حد الاستشهاد كما سنرى.

* * *

لا بد من العودة قليلاً مع الزمن، لنتعرف على بدء هذه الكاتبة: فقد ولدت في **دمشق**، بتاريخ الرابع عشر من أيار عام ١٨٨٨، من أسرة حموية الأصل. وتلقت علومها الأولى في المدرسة الروسية، ومنها انتقلت إلى المعهد الايرلندي.

وبالطبع، درست إلى جانب العربية، اللغتين الروسية والانكليزية، وحصلت على شهادة المعهد عام ١٩٠٣ . ثم انصرفت إلى التدريس لمدة سنة واحدة، قبل أن تلتحق بمدرسة التمريض في الكلية الأميركية، في **بيروت**. لكن الطالبة على شغفها بالعلم، لم تتمكن من المتابعة لأسباب صحية، فعادت إلى **دمشق**، وعينت معلمة من درجة أولى في المدرسة الروسية.

* * *

إلى جانب التعليم، كانت **لماري** تطلعات أخرى. فهي تهوى الكتابة، وقلمها طيِّعٌ في الشعر والنثر. والعصر عصر انتشار الفكر وإنشاء المجلات والصحف، كما هو عصر تفتح الوعي على الصعيدين: الإِنساني والوطني. وكانت الصحف والمجلات شخصية فردية، أي أن صاحب المجلة، يقوم بكل ما تتطلبه من أعمال ويحرر، إذا اقتضى الأمر، جميع المقالات، ويستعير لها الأسماء.

وهكذا وجدت **ماري** أن عدداً من الصحف يفتح صدره

بالترحاب لاستقبال قصائدها أو مقالاتها التوجيهية، وقد حررتها في البدء - وكما كانت تقتضي «**الموضة**» تحت اسم مستعار «**ليلى**» - وبعدما نالت شهرة ترضيها، تخلت عن «**ليلى**» المستعارة وعادت إلى **ماري** الأصلية. ولم تقف ضمن حدود وطنها، بل راسلت صحفاً في كل من **لبنان ومصر**، وبات لها أصدقاء وصديقات، ومعجبون بقلمها، وانطلقت هي تكتب عن الآمال المعقودة على النهضة، وكان التوجه التربوي غالباً في مقالاتها، ولا غرو في ذلك، أوليست هي معلمة؟

وبقي التعليم مهنتها، ومصدر عيشها، لا الأدب «**الذي لم يكن يطعم خبزاً**». وفي سبيل التدريس، انتقلت عام ١٩٠٩ الى **الاسكندرية**، حيث عُينت ناظرة لمدرسة **الأقباط** في تلك المدينة. غير أنها لم تلبث أن عادت تنتقل بين معاهد التعليم في **سوريا، ولبنان والعراق، وفلسطين**، وحيثما حلت، كانت تفرض شخصيتها بمواهبها الثلاث: **التعليم، الكتابة، والخطابة**.

لا عجب إذاً، أن نسمع الاستاذ **فارس الخوري**، وهو من أكبر رجالات الفكر والسياسة في عصره، يقول فيها هذين البيتين:

«يا أهـل العبقرية سجلوا هذه الشهادة

إن ماري العجمية هي مي وزيادة»

وقبل أن أسجل شهادة الاعجاب هذه رأيت أن أسأل بعض من عاصروا **ماري عجمي** أو عرفوها في أوج تألقها، إذا كانت هناك مبالغة، وأجابتني السيدة **عنبرة سلام** فقالت: «**طبعاً هناك مبالغة...**».

لكن وصف الأستاذ الكبير، ربما طابق مواقف لها، كانت غاية في

الجرأة، والشجاعة، والوطنية. وقد ارتقت بها، وحلّقت، وليس بالكلمة وحدها.

* * *

العام ١٩١٠ كان موعد صدور مجلة «**العروس**» وبذلك، تكون **ماري** قد حققت طموحاً دغدغ مشاعر كل كاتب وكاتبة في تلك الحقبة. إذ صدرت خلال تلك الأعوام، عشرات الصحف والمجلات. وكانت منابر لأقلام أصحابها وصاحباتها في الدرجة الأولى، وإذا جاء مقال أو قصيدة، من كاتب لم ينشئ صحيفته بعد، فلا بأس، ينشر له محاطاً بالحفاوة والتكريم.

لكن «**العروس**» لم تَقْوَ على عبور سنوات الحرب الصعبة، فتوقفت عن الصدور عام ١٩١٤، أي مع نشوب الحرب العالمية الأولى، لتعود فتظهر عام ١٩١٨، ولمدة سبع سنوات.

لكن صاحبة «**العروس**» لم توقف نشاطها الآخر، التدريس، فانصرفت تمارسه في معهد انشأته ورعته بنفسها، ودأبت فيه، على غرس الحس الوطني الصحيح في صدور الطالبات، وتوجيههن في الخط القويم، كما غرست في نفوسهن اليافعة، بذور مناهضة الحكم العثماني.

ولم ينحصر نشاطها في التعليم وحده، خلال تلك الفترة القاسية، على شعبها ووطنها، بل قامت تلبي الحاجات الاجتماعية الناتجة عن الحرب. وأسست مع **نازك العابد** (بيهم) «**النادي النسائي الأدبي**» ثم «**جمعية نور الفيحاء**» و «**مدرسة بنات الشهداء**». كما انتخبت عضواً في «**الرابطة الأدبية**» التي أسسها **خليل مردم**. وكانت المرأة الوحيدة فيها.

ومثلما أحيطت الكاتبة بتقدير مواطنيهها، وإعجابهم، كذلك حظيت بتقدير البلدان العربية المجاورة. ففي لبنان، دعا الأستاذ **جرجي نقولا باز**، الملقب بنصير المرأة، إلى جفلة أقامها على شرفها، عام ١٩٢٦، وذلك اعترافاً بالمكانة الرفيعة التي كانت تحتلها في نفوس قرائها وأصدقائها، وتقديراً لنضالها في حقلي الأدب والصحافة.

ومن بعده، تعاقبت على تكريمها المحافل الأدبية في **حيفا ويافا**، كما أن الكلمات التي ألقيت في تلك الاحتفالات، لم تركز على قيمتها الفكرية وحسب، بل وعلى مواقفها النضالية.

* * *

عند هذه النقطة، لا بد من وقفة في أهم محطة من حياة **ماري**؛ ففي بعض مسيرتها النضالية، التقت الصحفي المناضل «**بتروباولي**» وتبادلا الحب والإعجاب، كما تواعدا على الزواج، فعقدا خطبتهما، إلى أن تحين الفرصة. وكانت الكاتبة تطلق على خطيبها لقب **الباتر** نظراً لجرأته الأدبية والسياسية، وثباته في مواقف نضالية خاضها، وقادته في النهاية إلى حبل المشنقة.

أجل، **الباتر** كان بين الجماعة المناهضة للحكم **العثماني**، وخاض ضده حرباً شعواء، سلاحها الكلمة الجريئة الصادقة، والتي كانت تنير الرأي العام بقدر ما تثير حقد الطغاة. وقد أدخل السجن أكثر من مرة بسبب كتابته. وكانت تكتب الرسالة، ثم تحملها بيدها، وتمضي إلى زيارته، غير مبالية بما يحيط بها من صعوبة ومخاطر. وكيف تبالي بالخطر، والرجل الذي أحبت سجين، وهي تعلم أنه مظلوم في تلقي الأحكام الجائرة، من دون أن يعطى فرصة الدفاع عن النفس؟...

وبالطبع، لم يكن **الباتر** السجين الوحيد، ففي سجن **عاليه** كما في سجن «**جامع المعلقة**» في **دمشق**، عشرات بل مئات السجناء. ولكن الذين كانوا يثيرون اهتمامها (واهتمام الصحافة والرأي العام بالطبع) هم السجناء السياسيون، وبينهم رجال الصحافة.

وكانت **ماري** تحمل الرسالة إلى الخطيب بنفسها. فإذا استوقفها شرطي نهرته بعكاز لم يكن يفارقها، بسبب ضعف في إحدى ساقيها. أما إذا تمادى الحارس في وقاحته معها، استعانت عليه بالمتنفذين من وجهاء البلد. وأحياناً «**كانت تستخدم قسطل الماء لابلاغ رسالة شفوية إلى أحد السجناء في قاع الزنزانة**».

والباتر وكيل مجلتها في بيروت. وبينما كان ذاهباً إلى **بيت مري** حيث له أخ مريض، خدعه الشرطي، واقتاده إلى دائرة البوليس حيث قضى، ثلاثة أيام، اندلعت خلالها الحرب العالمية الأولى. فنقل السجناء، وهو في جملتهم إلى **دمشق**. وعندما علمت به **ماري** جن جنونها، وأشارت عليه بالهرب. لكنه لم يصغ إليها، إذ كان بريئاً ولم يرتكب جرماً يدفعه إلى الهرب.

وظلت تراسله، وتحمل الرسالة بيدها، إذ لم يتوفر لها من ينقل كلماتها وأشواقها إلى الحبيب:

«أخي السجين، أكتب إليك على ضوء القنديل، ولكن ما ينفع النور إذا كان القلب مظلماً؟ أراك على كرسيك الطويل وهو عرشك الجديد في مملكة المجرمين، تتلو على مسامعهم سمراً لطيفاً يخفف من بلوائهم، فأنت في موقف قلما تسنّى لكاتب إلا أجاد في وصفه، فلا تعبث بتأملاتك، بل قيدها، لأن الزمان قد قيد عليك

الوجود بين المجرمين... لقد نسيت العالم منذ رأيتك على هذه الحال... خذ حرية كحريتي، إن شئت، وأعطني سجناً كسجنك»...

وفي رسالة أخرى تقول: «**أخي السجين: أتدري انك في سجنك أكثر حرية مني، وأن السلاسل والأقفال التي يغلون بها أيدي السجناء ليست بأشد مما توجه إلى ذاكرتي...**»

* * *

وفي يوم، اقتحمت مقر الحاكم الذي كان يذر الرعب في النفوس، **جمال باشا**، وحظيت منه بمقابلة، وناقشته، وهي امرأة، في أمور كثيرة، وخرجت من المقابلة لتكتب مقالاً وصفت فيه الرجل وما جرى بينهما، وكاد ذلك يقودها إلى السجن وربما إلى الموت.

لكنها، مع الأسف الشديد، لم تفلح في انقاذ خطيبها ورفاقه، وقد استشهدوا شنقاً في السادس من أيار، في **ساحة الشهداء، بيروت، وساحة المرجة، دمشق.**

والباتر، لم يتخل لحظة عن شجاعته، لا في مواقفه الفكرية، ولا الإنسانية فها هو يصرخ، وقبل أن يعلقوا الحبل في عنقه بلحظات:

- **«هلموا أيها الأخوان**
  إنها أرجوحة الأبطال
  وأنت، يا تركيا الشقية
  حياتنا في ظلك ممات
  ومماتنا في ظلك حياة

فدونك إذاً، هذه الروح
التي أقمت منذ عامين
تحومين حول نزعها، بكل ما لديك
من وسائل الاضطهاد.
وما عهد سقوطك ببعيد.
فهنيئاً لمن يعيش ليرى الرجاء!»...

ولم يدعه الجلاد يكمل الحرف الأخير، إذ تقدم منه، وأحاط عنقه بالحبل. فرفس **الباتر** الكرسي بقدميه، كأنَّ لسان حاله يقول: «**من لم يمت بالسيف مات بحبل المشنقة**».

أما **ماري**، الرفيقة والحبيبة، فقد انفجرت كالبركان الثائر. والحزن الذي تغلغل إلى اعماق نفسها، راح يتشظى عبر قلمها، فكتبت تخاطب الشهداء بنبرة تحمل إلى جانب الحزن، تحدي المرأة الجريح:

«أما تبرحون غارقين في رقادكم أيها النائمون؟ أما تعبت أجنابكم، وملت من اللصوق بالرمال؟ قوموا، فقد نمتم طويلاً...

إن نفحات الربيع مالئة الفضاء، والأطيار تتسابق على الأفنان، والجداول تناديكم: أن هيا، عودوا إلينا لقد كفى القلوب وجداً وأنيناً، قوموا، فإن الأمة التي تعرفتموها، لا تريد أن تتعرفكم.

لقد اتخذت لنفسها أحباباً من بعدكم يراوغونها مراوغة الثعالب، لقد غدت تطرد أبناءها، وتبيع حق حياتها للغريب، رخيصاً، وتجد لذة في امتصاص دمها. عودوا... فقد عادت الورود الحمراء إلى مآقينا».

إن العلاقة التي كانت تربط بين الكاتبة والشهيد، هي علاقة وثيقة، وحميمة، ومن هذا المنطلق، ومن أعماق اليأس والحزن، تستل قوتها، غير هيابة. فإذا قضى الحبيب، ماذا تريد من دنياها، أكثر من وقفة شموخ واعتزاز؟.. لن تطأطئ رأسها، لن ترضخ للعثمانيين، ولا حتى لمن جاؤوا بعدهم، وحاولوا استمالتها.

وهذا الحب الحزين في فؤادها، راح يتفجر مقالات تشحذ فيها همم أبناء وطنها، لمناهضة المستعمر، والالتفات إلى دواخل النفوس والاهتمام بالثروات الطبيعية والإِنسانية، وتطويرها واستثمارها.

وقد رأى البعض في مقالاتها، بذور الدعوة **الغاندية** لإِنعاش المصنوعات الوطنية.

«إن المحراث في يدك أيها الرجل، لسيف تذود به عن حياتك، والمغزل في عينيك، أرهف سهم تناضل به، في سبيل مالك واستقلالك.

إن لبن الأم، يا قوم، خير من لبن المرضع، إن ثوباً تهديه إليكم بلادكم يستبقي مالكم الضائع. إلى مصنوعاتكم، أيها السوريون، فإنها لراية لبلاد لم تبق لها راية... وإن أمة هان على أبنائها بذل الدماء، لا يصعب عليها الانتصار في ميادين العمل».

* * *

وهكذا تتخذ الكاتبة من مناسبة الشهادة القدوة والمثال، لتحث الهمم، وتذكي في النفوس الحماسة للعمل، وفي كل مجال، لأن البلدان لا تبنى أو تنهض، إلا بسواعد بنيها.

ونسمعها تتغزل، في قصائدها، بالفلاح، والصانع، والزارع وترى في خشونة الأيدي العاملة كل الخير والبركة ولا تبخل، في شعرها ومقالاتها، على الجندي الذي:

«باع يوم النصر طوعاً روحه،
وبكفيه مفاتيح الردى،
وبعينيه اتقاد الهاجرة،
مؤمن بالحق صلب خشن
غير عاص شرعة أو آمرة».

وقد تكون **ماري** الكاتبة الوحيدة التي توغلت في السجن، إبان الحكم العثماني، وشهدت فيه، ما يعانيه السجناء (وجلهم من رجال السياسة والصحافة) من جور وتعسف. ولما طلب إليها أن تكتب وصفاً لمشاهداتها، كان ردها على ذلك، ما ورد في مقال عنوانه «**السادس من أيار**» قالت فيه:

«دخلت بابا، قام على جانبيه وفي صدره ثلاثة سجون منفصلة، لكل منها حاجز خاص، مصنوع من القضبان الحديدية، وهي مجموعة سجون، أو عبارة عن كهوف صخرية، يوصل إليها بثماني درجات، فرأيت وراء أحد تلك الأبواب نخلة باشا (المطران) جالساً عن كثب، عند مدخل مغارته الضيقة المنخفضة السقف، أمامه سلسلة ضخمة معلقة إلى قدميه، تزن ثلاثين رطلاً، لقعقعتها، كلما تحرك، صدى أجش... وكان يرفعها بيديه إذا مشى. ولما رآني رفع بصره، وأشار عليّ بالصمت مخافة الجواسيس والرقباء. وأنا أعجب لحالته وتجلده بعد ما نال تلك الاهانات، ولطخ وجهه آن

التشهير بالاقذار وصفع مئات الصفعات، بأيدي أناس لم يكن يرضى أن يكونوا له عبيداً...»

«وخرجت من ذلك المكان، فإذا غلام يحمل قصعة من اللبن، أرسل يطلبها أحد معارفي من السجناء، فإذا الخفير يحفر بأنامله القذرة، حفرة في تلك القصعة للتثبت مما فيها، ثم يلحس أنامله، لتطهيرها مما علق بها، فيفحص غيرها من القصاع، على اختلاف ألوان الطعام...»

«وما زالت زياراتي للسجون تتوالى، حتى رأيت أن أسعى جهدي لإنقاذ بعض الأدباء ساعة علمت أن لا مفر لهم من حكم الاعدام. وكانت المحكمة العرفية لا تسمح بدفاع المحامين...».

هذا الوصف الواقعي، وتلك الشهادة لمرحلة هي من أخطر ما مرت فيه البلاد في حينه، هي ما يميز أدب ماري وشخصيتها إذ لم يسبق لكاتبة أن عاشت الأحداث وانغمست فيها، مثلها، ثم شهدت لها في أدبها. وتركت الشهادة ساطعة على المعاناة التي اختبرها حاملو الاقلام والأفكار الوطنية.

ويبدو أن حربها لم تتوقف، بعد انحسار الحكم العثماني عن لبنان وسوريا. فقد واجهت الانتداب بالروح الوطنية الرافضة لكل إرادة خارجية. وها هي تدلي بشهادة أخرى هامة، على إثر تسلم الفرنسيين الحكم، إذ تقول:

«بعد أيام قليلة انقضت على استيلاء فرنسا على دمشق جاءني شرطي برقعة، يدعوني فيها رئيس الوزارة الجديد إلى اجتماع أراد

عقده. فكتب عليها كلمة «تبلغت» وأبيت أن ألبي الدعوة... وبعد انعقاد الاجتماع، سألت عن القصد منه، فقيل لي ان مدير إدارة المطبوعات الفرنسية خطب في الحضور، وهم من الكتاب، وعلمهم كيف يكتبون، ووزع عليهم ورقاً بلا ثمن، ووعدهم بالمساعدة.

ولم يمر ردح طويل على ذلك، حتى طفق أحد معارفي يتردد كل مساء محاولاً اقناعي بأنني، إذا هتفت لفرنسا وأنشأت الفصول، معددة الاصلاحات التي تقصد الانتداب من أجلها، فزت بأجر شهري ضخم من الذهب الوهاج...

وفاجأته يوماً بقولي: ما هي تلك الاصلاحات التي تريد أن أكتب عنها؟ قال: عليّ أن آتيك بقائمتها مرة بعد أخرى، وعليك إقناع القوم بها شفاها وخطابة وكتابة، قلت: «لتنجز فرنسا أولاً ما تعدنا به من الاصلاحات، فأترنم بذكرها مجاناً... وكان جوابي له آخر عهدي به...»

وإن دلت تلك الشهادات على شيء، فإنما تدل على أهمية حضور تلك الأديبة وعمق تأثيرها في مجتمعها، ولدى قرائها ثم صلابة موقفها، وعدم تخليها عن مبادئها، برغم كل تهديد أو إغراء.

* * *

وتابعت **ماري** خط نضالها على جبهاتها الثلاث: الكتابة، الخطابة، والتعليم. وكانت تلجأ إلى الشعر في المواقف الحماسية، إذ إنه يعبر بشكل أقوى وأغنى، عما يجيش في صدرها من براكين الغضب:

«ردوا التراب فما الوقوف بنافع   والقوا الستار فمن ثوى لم يرجع»

بهذه النظرة الواقعية كانت ترى الأحداث وتدعو مواطنيها ليبصروا الحقيقة، وينعموا فيها النظر، ويأخذوا منها عبرة لبناء غد أفضل ولتجاوز السقوط في اليأس.

وبقيت الكاتبة واقفة وسط الصحراء شامخة كنخلة قوية، بل تلهم القوة، كما توحي إلى من حولها بالتقدير والاحترام، فتحرك قريحة رجل من أعظم رجالات السياسة العربية، وأعني **فارس الخوري**، رئيس وزراء سوريا، وقتذاك ليقول فيها شهادته.

وهي، وإن لم تكن في مرتبة **مي** أديباً، تركت لنا أدب الشهادة، بل ما يشبه التوثيق لمرحلة مظلمة من تاريخنا.

* * *

لكن الزهو الذي عرفته في الصبا، ومطلع سن النضج، لم يستمر معها حتى منتصف العمر، حين خيمت غمامة قاتمة، فوق رأس **ماري**، وغلفت نفسها بغلاف السوداوية القاتم. وبقيت على تلك الحال ردحاً من العمر، وعجزت محاولات الأصدقاء عن إخراجها من عزلتها وسوداويتها. وحاولت جماعة منهم ضمّ قصائد الشاعرة في ديوان، كما جلدت أعداد مجلتها «**العروس**» في عدة مجلدات... لكنها كانت قد أصبحت بعيدة عن ذلك كله، والصدمة التي عرفتها في أوج شبابها، راحت تتغلغل في الأعماق، وتقتات من حيويتها. وحين وافتها المنية، مساء السبت في ٢٥ كانون الأول، عام ١٩٦٥، كان عقد الأصدقاء قد انفض من حولها، ومنذ زمن بعيد، ولم يَبْقَ، ليشهد آخرتها البائسة سوى نفر من المخلصين، رافقوا جنازتها إلى

مثواها الأخير في **مقبرة الباب الشرقي** للروم الارثوذكس، في **دمشق**.

- نساء من التاريخ - كتاب خاص بحفلة تابينها عام ١٩٤٨ .
الجمهورية العربية السورية.
- مجموعة مقالات ماري عجمي (مخطوطة).
- مقابلات مع صديقات عرفنها.

روز اليوسف



«أنا صنعت من نفسي هذه السيدة».

كانت يتيمة الأبوين، صغيرة، وغريبة. وكانت تذهب الى المسرح، وتدخل «**دار التمثيل العربي**» في **القاهرة**، كي تتفرّج على المسرحيات، وتراقب، بشغف، أبطال هذه الحياة العجيبة.

ولم تكن الفتاة الصغيرة، تفهم شيئاً من هذا الذي يمثلونه. إنما كان يبهرها ما تراه عيناها... الثياب المزخرفة، الشخصيات والأبطال.

عالم شاسع خرافي، تتزاحم فيه البطولات، والمآسي، والأحلام...

و«**كانت تجلس الساعات، تحدق الى المسرح، وتتمنى أن ترتدي – في يوم – تلك الثياب الغريبة**».

أحياناً، كانت تتسلل خلف الكواليس، وترافق الممثلين بنظرات ملؤها الشوق والدهشة، وتحاول أن تحفظ أسلوبهم في الإِلقاء، وتنغيم الكلمات...

آه! لو تصبح مثلهم، تتحدث بالشعر، تهتف بالكلام الحماسي!...

وكانت على تلك الحالة حين أبصرها الممثل الكبير **عمر وصفي**.

وكان ضخم الجسم، جهوري الصوت، واسع العينين، ومعروفاً بنظراته المرعبة..

سدد إليها نظرة فاحصة، بثّت الرعدة في أطرافها، ودفعتها إلى أن تلتصق بالجدار، وكأنما تود الدخول فيه هرباً من العينين المسلطتين عليها. وحين لم تجد لها مهرباً، راحت تبكي بحرقة... وصاح بها الرجل:

– **يا ابنة، تعالي...**

لم تتحرك، كما لم تكف عن البكاء. ومن خلال دموعها ابصرت رجلاً آخر، يدخل المكان «**وكان قصيراً، قميئاً محدودب الظهر، يضع على كتفيه معطفاً عتيقاً، تذكر لونه الأصفر الحائل الى اليوم. ومن عينيه، تطل طيبة وإنسانية عميقة، عرفت فيه، فيما بعد، المخرج الفنان عزيز عيد**».

اقترب يسألها عما بها، ولم تجبه، بل ازدادت تشبثاً بالجدار، تسند اليه قامتها الضئيلة. ابتسم كي يكشح الشك والخوف من نفسها، ثم اقترب منها، وأمسك بيدها، وقادها الى مقهى صغير بجوار المسرح، حيث قدم لها الشرابات وأصغى باهتمام كلي الى حكايتها الغريبة.

منذ تلك اللحظة، أصبح **عزيز عيد**، بالنسبة الى الصغيرة، بمثابة الأب الذي حُرمت عطفه.

* * *

هكذا تقدم روز **اليوسف** أو **فاطمة اليوسف**، لحكايتها مع المسرح وحياة الفن، في **مصر**، وذلك في مذكرات نشرتها تحت عنوان «**ذكريات**».

لا، لم تتطرّق في ذكرياتها الى حياة تلك الصغيرة من قبل، أي منذ أن بدأت تدب فوق الأرض، ومع خطواتها الأولى تكتب حكاية تقرب من الأساطير.

وهي حكايتها، من بدء اليتم والتشرد حتى بلوغها ذروة المجد المسرحي، والصحفي...

وفي ذلك كتب، فيما بعد، ابنها القصصي، والكاتب الشهير **إحسان عبدالقدوس**، يتساءل: «**كيف استطاعت، تلك المرأة، أن تحل وحدها تلك المشكلة، كيف استطاعت أن تجمع بين جهادها الشاق المضني، والذي بدأته وهي في السابعة من عمرها، وبين واجبها كزوجة وأم؟**».

بالطبع، علينا أن نبحث، وراء النجاح الباهر، الذي حققته تلك السيدة عن الدافع القوي، الذي كان يحثها باستمرار، لتتجاوز نفسها، وتقطع المراحل الصعبة، وتتسلق القمم، الواحدة تلو الأخرى، غير عابئة بما يكلفها ذلك من ألم، وجهد، وصبر ونضال.

مِنَ الناس مَن ينذرون أنفسهم للمهمات الصعبة، وهذه السيدة واحدة منهم.

وتظل حكايتها الأولى غريبة، وغامضة، إذ انها لم تتطرق اليها في «ذكرياتها» بل عُرفت، مثلما رواها المشرفون على تربيتها، وكما وعتها ذاكرة الطفلة، التي غادرت بلدتها (**طرابلس – لبنان**) ولها من العمر سبع سنوات، وذلك بعدما فقدت والدها، وقد توفي في **تركيا**، حيث كان عمله. وأمها التي توفيت بعد ولادة الطفلة بعام واحد، تاركة أمر العناية بها لمربية اسمها: **فاطمة**، وكانت في الجوار عائلة مسيحية، تبنّت الطفلة الحلوة، وأطلقت عليها اسم **روز**، ومعناها الوردة، وذلك نسبة الى ما كانت عليه من جمال.

وكان أحد أفراد تلك العائلة مهاجراً الى أميركا، فرأى أن يصطحب الصغيرة ربما ليؤمّن لها مستقبلاً أفضل. وقد توقف خلال الرحلة في الاسكندرية. وهنا كان التحول القدري الغامض، فقد زار

الباخرة صاحب فرقة مسرحية، وربما كان قريباً لذلك المغترب، فأخذ الفتاة وأدخلها في فرقته.

أتوقف هنا لأشير الى الغموض الذي يكتنف هذه المرحلة من حياة السيدة **روز اليوسف**. حتى ابنها، الكاتب الكبير، لا يعرف تماماً، ما الذي جرى بين السن السابعة، ومطلع سني المراهقة. أي حين بدأت ترتاد المسارح، وتعجب بالفن، وتتمنى لو تكون واحدة من نجومه المتألقة، وقد سعى، فيما بعد للتعرف الى اهلها، لكن مسعاه لم يتكلل بالنجاح.

بالطبع، هذا لا يقلل من شأن الحكاية، أو من غرابتها. والمصادفة التي قادتها الى **عزيز عيد** اشبه بالمعجزة. فقد شعر الرجل، بفطرته الفنية الأصيلة، أن بين يديه قماشة فنانة، وهو القائل: «**لا أستطيع أن أجعل من الرصاص ذهباً. إنما يمكنني أن أكتشف الذهب وأجعله لامعاً خلاباً**».

نعم... عرف حق المعرفة، أن بين يديه قطعة ذهب، تغطيها طبقة من الغموض، والضباب، فراح يصقل ويجلو ويعلّم بصبر ومحبة، والصغيرة تستجيب، بل تلتهم العلم الجديد، بنهم ورغبة. وفي ذكرياتها، ترد كل الفضل، في تألّقها ونجاحها، الى هذا **الأستاذ الأصيل**.

* * *

كان يعاملها كفنانة، منذ **البدء**، ويترقب فرصة إدخالها الى المسرح. وقد جاءت الفرصة حين أخرج مسرحية «**عواطف البنين**»، وبقي لديه دور الجدة العجوز بعدما رفضت أن تقوم به الممثلات الصبايا.

ولم تكن البشرى مفرحة للصغيرة، إذ أصيبت بالمغص، والدوار وشعرت بأنها توشك أن يغمى عليها. لكن ثقتها بأستاذها كبيرة، ولذا وضعت نفسها بتصرف موهبته. وهو غادر المسرح، مدة أسبوع، كي يتفرغ لتدريبها على أصول التمثيل، حتى تتقن الدور، ولا تخيّبه، خصوصاً وأن عنايته بها باتت مادة للسخرية عند كل من يعمل في تلك الرواية.

وفوجئ، حين صعدت المسرح، بنجاحها، وإتقانها للدور. والذي ساعدها أن «**صوتها نحيف، خافت بطبعه، يرتعش ويتهدّج من فرط الخوف والارتباك...**».

وهكذا نجحت في الامتحان الأول الشاق. وأكدت لأستاذها قوله بأنها ستكون أفضل ممثلة «**دراما**».

* * *

الحكاية، بعد الخطوة الأولى، مسلسل صراع، يتأرجح بين النجاح والفشل. لا بسبب قلة موهبة الفنانة الناشئة، وإنما يعود إلى تخبط المسرح، في الضياع؛ فقد كانت تلك مرحلة إرساء القواعد، ووضع اللبنة الأولى لما أصبح فيما بعد، المسرح العريق.

وكانت هذه **الفنانة الناشئة**، تبني مع الآباء الأوائل، مجد هذا الفن، لا في **مصر**، وحسب، بل وفي العالم العربي قاطبة.

فقد عملت مع **عزيز عيد**، **وجورج أبيض**، **ونجيب الريحاني**، **ويوسف وهبي**، وسواهم من كبار الممثلين. وعملت بأسلوب أصيل مميّز، أخذته عن عزيز الذي عاش ومات فقيراً، لأنه ظل يرفض التنازل، والمساومة على الأصالة، وما يعتبره الفن الراقي.

ومع **عزيز** مثلت دور البطولة في مسرحية «**خلي بالك من املي**». وكان معها **نجيب الريحاني**. ونجحت نجاحاً كبيراً جعل نقاد الفن يطلقون عليها لقب «**الفودفيله الحسناء**». إنما كان عليها أن تنتظر بعض الوقت، كي تبلغ ذروة الإِبداع مع فرقة **رمسيس** في تمثيلها دور «**مرغريت**» من مسرحية «**غادة الكاميليا**»، وكانت قد سبقتها إلى تمثيل هذا الدور في فرنسا الممثلة الكبيرة **ساره برنارد**، وهذا ما دفع النقاد الى اطلاق لقب «**ساره برنارد الشرق**» على **روز** التي أبدعت في النسخة المعرّبة.

* * *

استمرت **روز** في تمثيل الدور النسائي الأول، في عدد من المسرحيات التي قدمتها فرقة **رمسيس** إما موضوعة، أو معرّبة، لكنها بدأت تضيق بأسلوب أحد ممثلي الفرقة، الفنان **يوسف وهبي**، وقد كان مستبداً في رأيه، ومختلفاً عنها في طريقة تمثيله وتقديره الفني. وحين حاول أن يفرض عليها الاشتراك في مسرحية «**الذبائح**» وهي عبارة عن سلسلة فواجع يمجها ذوق الفنانة الأصيلة، فضلت الخروج من الفرقة، على القبول بهذا الدور، أو أي دور لا تكون هي قانعة به... وسافرت الى **فرنسا** لتقضي إجازة في **باريس**... كان العام ١٩٢٤ . وأخذت الفرقة تتدهور. فأرسل اليها **محمد التابعي** (وكان ناقداً فنياً يكتب في صحيفة الأهرام، وتحترم رأيه وقلمه) أرسل يطلب منها الحضور، لأن **نجيب الريحاني** كوّن فرقة لتمثيل «**الدراما**» ويود أن يسند إليها دور البطولة. وحملت اليها الرسالة عقداً كي توقعه، وهاج شوقها الى الفن، فعادت... واستمرت مع الفرقة أسبوعين فقط

ثم خرجت. وتعلل ذلك بقولها إن **الريحاني** خُلق للأدوار الفكاهية، وكان «**يُضحك الناس في مواقف يُفْرض أن تكون محزنة**».

بعدها، اعتزلت المسرح تسع سنوات. أي من عام ١٩٢٥ حتى عام ١٩٣٤ حين احترقت قرية «**محمد زياد**» وكان هذا الحريق كارثة، فتسابق الناس للتبرع، كي يُعاد بناء القرية. وقررت **روز** أن تمثل دورها الأشهر «**غادة الكاميليا**» ليلتين، مع رفاقها القدامى، وذلك لمساعدة القرية المنكوبة. ومع هذا النجاح الأخير، وضعت الخاتمة لحياتها المسرحية.

لكنها، بعد ذلك، انتقلت الى مسرح آخر، أرحب، وربما أبعد أثراً في المجتمع، ألا وهو المجال الصحفي.

وتقول السيدة التي خبرت المسرحين: «**كان غريباً، فيما يتعلق بالسياسة، أن أجد الروايات التي مثّلت على مسرحها طوال ثمان وعشرين سنة، تكاد أن تكون رواية واحدة. قد يتغيّر الأبطال، والمخرجون، لكن الرواية هي، هي، والخاتمة التي تنزل عندها الستارة، لا تتغيّر**».

وتلخص قصتها مع الصحافة بأنها حكاية إصرار وصبر وتصميم.

أول ما خطرت لها الفكرة وهي في صحبة بعض الزملاء من الوسط الفني، وتساءلت بصوت عالٍ:

– **لماذا لا أُصدر مجلة فنية؟**

ثم لم تتوقف لتسمع احتجاج الرفاق وتساؤلهم عن امكان نجاح المشروع... بادرت هي أيضاً الى اختيار الاسم، فأطلقت عليها اسمها: «**روز اليوسف**». «الاسم الذي تعلق به الجمهور وأحبه».

كان كل من يسمعها تتحدث عن الموضوع، يظن أنها نزوة وتنسى. إنما هي كانت جادة، وراحت تجمع العناصر. وكان أول محرر استدعته **محمد التابعي**، وحوّلتْ شقتها، والتي كان يملكها الشاعر **أحمد شوقي**، الى مقر مُوَقَّت للمجلة. وتقول انه كان على كل من شاء المشاركة في التحرير أن يصعد خمساً وتسعين درجة. وساعدها **التابعي** في كل شيء، من التحرير الى العمل في المطبعة. وأكثر الذين استجابوا لدعوتها، قدموا عملهم مجاناً، إذ لم تكن تملك النقود لتسدد تكاليف الطباعة والورق، فكيف بالمرتبات؟!

المهم أن المجلة صدرت، وأبصر العدد الأول النور في السادس والعشرين من شهر تشرين الأول (أكتوبر) من العام ١٩٢٥ . وفكرت في أن تتولى فتيات مهمة توزيع المجلة في شوارع **القاهرة**، لكن هذه الفكرة لم تتحقق.

وتابعت نضالها في سبيل دفع المجلة، من تردد الاطلالة الأولى الى الرسوخ في مجتمع لم يكن للمرأة فيه أي نصيب من النشاط الفكري. وتلخص الحالة في مذكراتها فتقول: «**كان اقتحام ميدان الصحافة أمراً صعباً جديداً على الرجال، فما بالك بالنساء؟ وفي هذا الجو، كان عليّ أن أمضي. أن أتحمل مسؤوليةِ عمل يحمل اسمي، أن أشنّ الحملات وأتعرّض للهجوم المضاد، أن أَرئس مؤسسة كل من يعمل فيها رجال، أن أذهب لمقابلة رجال هم أمام الناس وزراء وكبراء ولكنهم في الحقيقة ليسوا إلا رجالاً لا يعرفون عن النساء إلا أنهن لهو ومتاع. كانت هذه في واقع الأمر مشكلة المشاكل. وكان عليّ أن أجتاز تجارب قاسية، وأن أتعلم دروساً كثيرة**».

* * *

وقد روت في سيرة حياتها بعضاً من تلك التجارب، كما رسمت درب صراعها الطويل، مع السياسة، ومع الرجل، ومع الأحزاب والحكومات، ذلك أن المجلة الطامحة، لم تلبث أن راحت تستقطب أقلام كبار الكتّاب أمثال **العقاد**، **وطه حسين** وسواهما. ولها حكاية طريفة مع **العقاد** الذي كان يكتب في «**الجهاد**» فسأل رسولها:

– **الجرنال حيكون اسمه ايه؟**

ولما قيل له «**روز اليوسف**» أجاب:

– **لا أعمل في جرنال يحمل اسم واحدة ست...**

لكنه عاد فتراجع عن كلامه حين دفعت له مرتباً قدره ثمانون جنيهاً، مع سلفة أربعة أشهر، وكانت «**الجهاد**» تدفع له سبعين جنيهاً في الشهر.

ولما عاتبته على قوله، صحّح موقفه منها، فشرح لها أنه لم يكن ضد التسمية باسم سيدة، بل ان موقفه ضد تسمية المجلة باسم أيّ شخص، ولو كان **سعد زغلول**.

* * *

وللمناسبة، فإن السيدة **روز** كانت شديدة الإِعجاب **بسعد زغلول** ومواقفه الوطنية، تقصده أينما كان، لتسمع كلامه المخلص، والذي كان يُصيب نقاطاً حساسة في كيانها، ويدفعها الى المزيد من الالتزام، العملي..

إنها لا تقف على الحياد من أية قضية، ولذا رأت أن لا بد من اقحام مجلتها في المجال السياسي، حتى يكون لها نصيب أكبر في المشاركة الوطنية.

وذهبت الى رئيس الوزراء في حينه، **أحمد زيّور**، وطلبت منه الترخيص لتصدر صحيفة سياسية، وتعجب حين علم أن وزارة الداخلية رفضت طلبها، بحجة أن حزب الوفد المعارض يستتر بها... لكن الرئيس الطيب سمح بالترخيص بسهولة قائلاً:

- أعطوها الترخيص... خلوها تاكل عيش.

وكانت هذه عبارته الشهيرة، يرددها كلما قيل له بأن إحدى الصحف تهاجمه.

* * *

وكانت خطوتها التالية العمل مع الكتّاب والمحررين ليتحولوا من الكتابة في الفن والأدب، الى السياسة. وقبل **التابعي** أن يكتب مقاله السياسي غصباً عنه. وراحت المجلة تنحاز الى جانب **سعد زغلول**. وبدأ اعضاء الوفد يقرأونها في السرّ - لأن صاحبتها امرأة.

وتذكر أن السيدة **هدى شعراوي** كانت في طليعة المشجعين، بينما لزمت **«أم المصريين»** أي **زوجة سعد زغلول** الصمت حيال هذا العمل الجديد.

وبدأت على صفحات المجلة الصراعات الفكرية والسياسية. وكانت هناك معركة بين **العقاد والمازني** من جهة، **وأحمد شوقي** من الجهة الأخرى. فأخذت **روز** على عاتقها أمر المصالحة، وقد تمت في مكاتب المجلة - وكانت قد انتقلت من شقتها الى غرفتين صغيرتين، تحت درج إحدى البنايات التي يملكها **شوقي**. وتذكر أن **أمير الشعراء** كان يزور المجلة دائماً، ويخصها ببعض قصائده، وكان يُسرّ

أشد السرور حين يبصر **العقاد**، بقامته الطويلة، يضطر الى الانحناء كي يدخل من الباب المنخفض، فيعلّق بقوله:

– **الادارة الجديدة علّمتنا التواضع يا ست روز.**

* * *

عام ١٩٢٧ سافرت **روز** الى باريس في إجازة قصيرة، وهناك قرأت نبأ وفاة **سعد زغلول** فحزنت حزناً شديداً، وعادت الى مصر، لتتابع مساندتها لحزب الوفد، بحماسة أشد من السابق. وكان سلاح المجلة المقال اللاذع و«**الكاريكاتور**» الساخر الطريف. وبالطبع عرّضها ذلك للمطاردة والمصادرة. وأول مرة صودرت المجلة، انطلقت، من دون أن تفكر، الى بيت الأمة، حيث كان **مصطفى النحاس** يعقد اجتماعاً، فدخلت عليه بلا استئذان أو سلام... كانت هناك عبارة واحدة سبقتها:

– **لقد صادروا المجلة، يا باشا. وأنا عاوزة الافراج عنها.**

فابتسم بهدوء وأجاب:

– **لك الفخار، يا سيدتي..**

وكانت عيون رفاقه تحدق الى وجهها غير مصدقة، هل هذه هي السيدة التي تقف خلف هذا المشروع الجبّار؟.

بعد ذلك، كان عليها أن تتعوَّد الأمر، إذ راحت الحكومة تصادر من أعداد المجلة أكثر مما تبيع... وخلال سنتين، بلغ رقم الأعداد المصادرة اثنين وستين عدداً، والمباع اثنين وأربعين. وأطلقت إحدى الصحف المعادية على الوفد اسم: «**حزب روز اليوسف**»، وتلقى **النحاس** الهجوم في إحدى خطبه فرد بقوله: إنه يفخر بأن يكون الوفد

«**حزب روز اليوسف**»، المجلة المجاهدة الشجاعة والتي لا تبالي بالاضطهاد.

* * *

هذه المناصرة كانت لصالح المجلة، كما أن ازدياد رقعة انتشارها، جعلها تطلب المزيد من التوسع والراحة، فاتخذت لها شقة كبيرة، واستقطبت الكفاءات والمواهب الشابة، وكانت للسيدة عين لا تخطئ في اختيار المواهب، وتشجيعها. لكنها عانت كذلك من أوقات الهبوط، بسبب الاضطهاد، والحملات المضادة. غير أنها بقيت أمينة لأفكارها، ومبادئها، وفية للأشخاص الذين يمثلون في رأيها، الوطنية والشهامة.

* * *

ومن الطرائف التي ترويها عن علاقتها بالوفد، أنها ذهبت ذات يوم لتحضر مناسبة وطنية كان يقام لها احتفال، وكان **مصطفى النحاس** يلقي خطاباً، والساحة تعج بالجماهير، وهي لم تشأ التوجه الى سرادق النساء، فسمع **النحاس** ضجة وأصواتاً تردد:

– **وسّع يا جدع... وسّع انت وهو...**

وصاح من فوق المنصة:

– **فيه ايه؟**

ثم لاحظ السيدة تدخل، والواقفون يحاولون أن يفسحوا لها مكاناً كي تجلس فصاح بهم:

– **شيلوها، وهاتوها هنا.**

وتقول متابعة سرد الحادثة: «**وقبل أن أفكر في الأمر، كانت الجماهير قد حملتني وفي لمح البصر وجدتني أجلس على المنصة، بجوار النحاس**».

وهناك حوادث كثيرة مماثلة ترويها المذكرات، وإن دلّت على شيء، فإنما تدل على المكانة التي كانت **للسيدة روز** في المجتمع، بل انها فرضت شخصيتها على أكبر المقامات، مع الاحترام والتكريم. وقد اطلعت على مجموعة مقالات في أرشيف **الأهرام**، كتبها أكبر أدباء وكتّاب **مصر**، على اثر وفاتها، وكلها تشهد لهذه السيدة الرائدة بالشجاعة، والذكاء، الى نظافة كف، وشهامة فكر. فهي لم تسخّر قلمها، أو مجلتها، لقضية لم تؤمن بها. ولهذا كان عليها أن تحتمل الكثير من الاضطهاد الذي أخذ وجوهاً شتى، من السجن، الى التضييق المالي والى تخلي الأقلام التي كان لها الفضل الأول في تشجيعها.

وبلغ الصراع أوجه مع إصدارها صحيفة يوميّة - سياسية طبعاً - تحمل اسم «**روز اليوسف**» أيضاً. وقد صدرت طريفة في ابوابها، غنية في محتواها، وتحمل طابع السخرية. ويبدو أن حزب الوفد بعدما أصبح في الحكم لم يكن مستعداً ليتحمل منها المعارضة والنقد، والسخرية. ولم تشأ هي أن ترضخ، بل سارت في خطها المعارض. فحصلت أزمة عنيفة، قرر الحزب على أثرها، فصلها، وذلك بتاريخ ٢٨ أيلول عام ١٩٣٥ . وسارت تظاهرات ضدها. وسمعت الشتائم وهي في مكتبها، من أفواه الذين كانوا حتى الأمس القريب يهتفون لها.

وتقول: إنها خرجت الى الشرفة، وواجهتم وراحت تهتف بسقوط **النحاس ومكرم عبيد**. في البدء جاروها، ثم انتبهوا، فعادوا يوجهون الهتاف ضدها. وكانت في اعماقها تتألم، وتتذكر كيف وقفت تزغرد حين صدر حكم بتبرئة **النحاس** في إحدى المحاكمات. وظلت تعترف بأن **النحاس رجل شريف**، لكنه طيب، وطيبته جعلت الآخرين يستغلونه.

ثم قامت حرب شتائم كلامية، على صفحات الجرائد، خصوصاً بين **العقاد ومكرم عبيد**. فإذا بصحيفة «**روز اليوسف**» والمجلة تتعرضان للحرق والتمزيق من قبل الجماهير الغاضبة. وانتهت حملة الصحيفة اليومية بالنجاح المعنوي الذي حققته بعودة الدستور. لكنها «**كسبت المعركة وخسرت حياتها**» إذ أغرقت صاحبتها في ديون اضطرتها الى بيع حلاها، وثيابها، حتى انها رهنت سواراً وحيداً ورثته عن أمها. وبدأ الكتّاب يغادرون «**السفينة الغارقة**»، وفي مقدمهم **العقاد ومحمود عزمي**. وبدل رسائل الإِعجاب، بدأت تردها إنذارات الحجز، حتى أن أحد المخبرين، (وتقول إنه بات محرراً في الأهرام) طلب أن يحجز على ثيابها الداخلية، بسبب دين له في ذمتها، لا يزيد على الستة جنيهات. لكن مأمور الحجز، خجل من أن يقوم بالمهمة واكتفى بتسجيل بعض الثياب.

* * *

وتابع **الوفد** حملته ضدها وهو الحزب الحاكم، فأصدر قراراً بالغاء الصحيفة اليومية بحجة أنها لا تصدر بانتظام، كما شن حربه على الأسبوعية، وفي العام ١٩٣٦ أدخلت **روز** السجن، وكانت، ربما،

أول امرأة شرقية تسجن لأسباب سياسية فكرية. لكنها لم تتراجع، وتابعت نضالها، وأصدرت مجلة «**صباح الخير**» سنة ١٩٥٦ .

لا تخبرنا **روز اليوسف** الكثير عن حياتها الخاصة، عدا ذكرها لابنها **إحسان عبد القدوس**. مرة حين رفضت أن تُدخل **التابعي** شريكاً لها في الدار، معتبرة أن ذلك من حق ابنها. ثم عن المرض الخطير الذي أصيب به **إحسان** وهو في الخامسة من عمره، مما اضطرها الى ملازمة فراشة مدة خمسة وثلاثين يوماً، حتى عادت اليه العافية، ناسية كل مسؤولية، ما عدا الأمومة. ثم موقفها من هذا الابن الوحيد، حين تخرّج حاملاً «**الليسانس**» وجاء ليتسلم رئاسة التحرير. فقد رفضت ذلك، طالبة منه أن يتدرّج ويتدرّب، كي يستحق هذا المركز. فغادرها وعمل في «**آخر ساعة**» مع **التابعي** الذي دفع له مرتّباً يبلغ ثلاثة أضعاف ما كانت تدفع له.

ثم عاد الى «**روز اليوسف**» عام ١٩٤٥ ليتسلم مسؤولياته، ودخل السجن اثر أول مقال كتبه. وحين خرج، سلمته رئاسة التحرير، وسمحت له بأن يدخن السيجارة أمامها للمرة الأولى.

وتعترف، **رغم حبها الكبير لإحسان**، بأنها ظلت على خلاف معه، بسبب مواقفه من المرأة في رواياته وقصصه.

* * *

ولا بد، هنا، من ذكر لمحة عن الحياة الخاصة لهذه السيدة الكبيرة. فقد تزوجت **محمد عبد القدوس**، وكان مهندساً وفناناً عمل معها على المسرح مدة، وأعلنت إسلامها، متخذة لها اسما جديداً: **فاطمة**،

لكنها احتفظت باسم **روز** لأسباب فنية. **وإحسان** هو ثمرة هذا الزواج الذي انتهى الى طلاق، ثم تزوجت **روز** ممثلاً وناقداً اسمه **زكي طليمات** وولدت منه ابنتها **آمال**.

لكن هذا الزواج أيضاً لم يدم، وكان زواجها الثالث بالمحامي **قاسم أمين** وهو حفيد الرجل، الذي يحمل الاسم نفسه، ومناصر المرأة الأول: **قاسم أمين**.

وكانت علاقتها بابنها طيبة الى أقصى حد. فهي أمامه الحنان، والعطاء. لكنها ظلت واعية أهمية التربية، مستفيدة من نضالها، فشاءت أن يبني هو اسمه، بتعبه وجهده. أما الابن، فتفضح عاطفته نحوها كتابته عنها وعن تأثيرها عليه، وعلى أبناء جيله، فهو يصفها، كما يصف العاشق حبيبته، حتى ينتهي الى الاعتراف بأن: «**أمي صنعت مني هذا الرجل**» بينما تقول ذكرياتها «**أنا صنعت من نفسي هذه السيدة**».

وكانت وفاة السيدة **روز - فاطمة اليوسف** في العاشر من شهر نيسان عام ١٩٥٨ . ومثلما كان ينتظر لمناضلة مثلها، فاجأتها نوبة قلبية، بعد نهار من النشاط، وبعدما أوت إلى فراشها، واستعدت لراحة المساء.

وقد استحقت من التكريم عدة أوسمة منها وسام المملكة المصرية لتشجيع التمثيل العربي، منحته مرتين عام ١٩٢٥ وعام ١٩٢٦ . ووسام الجمهورية منح بعد وفاتها من قبل الرئيس **أنور السادات** عام ١٩٨١ . كما رفع تمثالها في **دار الأوبرا**، ولها تمثال آخر على مدخل

دار «**روز اليوسف**». ويبقى التكريم الأعظم، وهو عطاؤها السخي في كل المجالات التي خاضتها.

- مقابلة خاصة مع ابنها الكاتب إحسان عبد القدوس.
- أرشيف روز اليوسف في دار الاهرام.
- ذكريات - فاطمة اليوسف.

ابتهاج قدورة



«كانت السباقة في إطلاق أول صوت نسائي ارتفع
في شرقنا مطالباً بالحقوق السياسية للمرأة...»

مع رحيل الرائدة الاجتماعية الانسة **ابتهاج قدورة** يمكننا أن نطوي صفحة هامة من تاريخ النهضة النسائية، في لبنان والعالم العربي ذلك أنّ هذه السيدة كانت من الرعيل الذي تصدى للريادة، غير متهيب وعورة المسالك وتراكم العقبات. وقد بنت، مع كل خطوة نقلتها فوق أرض بلادها، عمارة معنوية، سوف تبقى مستمرة في الاجيال المقبلة.

* * *

ولدت ابتهاج قدورة عام ١٨٩٣ في بيروت والدها الدكتور **أديب قدورة**، أول طبيب مسلم في العاصمة اللبنانية ووالدتها سيدة دمشقية من أسرة «**إيبش**»، وهي أخت لخمسة اولاد في عائلة **قدورة**: **فريدة**، **نادرة** (توفيت في أوج صباها) الصيدلي **مصطفى**، الدكتور **حليم**، والدكتور **نادر**. ولا بد، هنا، من ملاحظة الخلفية الثقافية لنشأة الفتاة: لم يكن عجبا ان تظهر ابتهاج طموحا شديدا الى العلم، ثم تبرز، بعد حين، مقدرتها على تسلم مراكز القيادة، في وقت لم يكن فيه تعليم المرأة شائعا. بل ان خروجها من البيت، في ذلك الزمان، كان ظاهرة مستهجنة بل مرفوضة...

* * *

درست **ابتهاج** في مدرسة البنات الاميركية، من الصف الابتدائي الاول، حتى نالت الشهادة العليا عام ١٩٠٩، وبتفوق ملحوظ. وتعلّمت الى جانب العربية، اللغتين، الفرنسية والانكليزية. وفي نهاية

العام الدراسي كانت خطيبة الحفلة، فألقت كلمة عنوانها: «**دور المرأة في الهيئة الاجتماعية**».

إذاً، منذ المرحلة المبكرة، كان وعيها منفتحا على أهمية الدور الذي يمكن للمرأة ان تلعبه في مجتمعها.

بعد ذلك، تابعت الصبية تثقفها في مكتبة والدها، الزاخرة بالتراث الفكري، وبأكثر من لغة. وكانت خطوتها الاولى، لدخول المجتمع، نشر مقالات اجتماعية في الصحف والمجلات الصادرة في حينه، كذلك ثابرت على الاستزادة من المعرفة، وتفقهت بأمور الدين. أما المقالات التي تابعت نشرها، فتدور حول المواضيع الادبية، والسياسية والاجتماعية والتربوية. كذلك جذبتها الموسيقى، فتعلمت العزف على البيانو، واتقنت فن تنسيق الزهور والخياطة والتطريز، وسواها من الفنون التي اعتبرتها هامة في تثقيف المرأة، الى جانب تعمقها في الدراسة والابحاث...

* * *

وابتهاج، المرأة الواعية، والمرهفة الحس، شعرت كم ان مجتمعها يحتاج الى يد المرأة، تشارك في شتى ميادينه، وتعمل على رفع مستوى بنات جنسها، لترفع بالتالي، مكانة المرأة عامة، وتدفع المجتمع على دروب التقدم الحضاري.

لذا، ما كادت تغادر المدرسة، حتى بدأت سعيها لانشاء حركة اجتماعية ناهضة؛ وانخرطت عمليا، في النهضة الطالعة من تخلف عمره مئات السنين...

وقد اعتبرت **ابتهاج** ان «**العمل الاجتماعي واجب كالحقوق**

تماما، وكل فتاة ينبغي ان تخصص جزءا من وقتها لكل ما يتعلق برعاية الطفولة، والتمريض في المستشفيات ولكل قضايا بلدها»...

* * *

من هذا المفهوم انطلقت، وكانت الحركة النسائية في لبنان، متأثرة بتيار النشاط النسائي في الخارج - في **مصر**، كما في **اوروبا واميركا**، وهكذا أمسكت الشابة النشيطة بطرف الخيط، وراحت تحوك ثوب الوثبة الجديدة. وقد عاصرت، في أوج شبابها، انحسار السلطة العثمانية عن لبنان، ودخول الفرنسيين، ثم عهد الاستقلال. وكان لهذه التحولات اثر عميق، في نفسها، كما في نضالها...

* * *

لاحظت **ابتهاج**، ان العلم هو النور الذي يضئ السبيل أمام الانسان، كما أدركت أن المرأة لن تستطيع التحرك في اتجاه أبواب المستقبل الافضل، ما لم يكن زادها العلم والمعرفة. لذا، جاء تحركها الاول نحو المطالبة بإلزامية تعليم المرأة، لا من أجل ان تصبح طبيبة او عالمة، او مفكرة وحسب، بل لتصبح زوجة افضل، وشريكة للرجل في مسيرة تقدمه، واما حكيمة لاولادها، ترضعهم المعرفة مع لبنها، كما تنير لهم سبل التقدم وتتمكن من حمل مسؤولية الحرية والاستقلال...

وابتهاج الرائدة، آمنت بأن الاصلاح الشعبي، يجب أن يبدأ بتعليم المرأة. وايمانها هذا، كان يسير جنبا الى جنب، مع وعيها لأهمية التحرك الاجتماعي، عبر الجمعيات والمؤسسات.

* * *

وقد ترجمت الانسة **قدورة** طموحها بالعمل، حين أسست أول جمعية نسائية هي «**يقظة الفتاة العربية**». ولم تكن سنها تجيز لها الحصول على ترخيص، فلجأت مع رفيقاتها الى السيدة **نجلاء بيهم** وحصلن على الرخصة باسمها. وقد اهتمت هذه الجمعية، بتعليم الفتيات المعوزات. لكن حين وقعت الحرب العالمية الاولى، انتقل اهتمام الرائدات الى ضحايا الحرب. وكانت **ابتهاج** تهتم شخصيا بالمرضى والمشردين، حتى انتقلت اليها عدوى «**التيفوس**» وكاد المرض يودي بحياتها.

* * *

بعد الحرب، انصرفت مع رفيقاتها، الى انشاء «**نادي جمعية الامور الخيرية للفتيات المسلمات**» وهو أول ناد ثقافي نسائي، مزود بمكتبة للمطالعة، وقاعة للمحاضرات. وكانت المحاضرة تلقي كلمتها من وراء الحجاب، لكن ذلك تغير مع تطور الزمن... كذلك انشئ في هذا النادي مسرح للتمثيل، ومركز لتعليم الموسيقى والتصوير الفوتوغرافي. وكانت **ابتهاج** تندفع اكثر فأكثر الى الغوص في قضايا المجتمع، بحماسة الرائدات اللواتي يكرسن الوقت، وكل الجهد، في سبيل قضية تشغلهن.

* * *

انتُخبت **ابتهاج** عام ١٩٣٠ عميدة «**اللجنة النسائية لدار الايتام الاسلامية**» واستمرت عميدَةً حتى ١٩٥٢ . كما أسست، مع فريق من السيدات اللبنانيات، الجمعيات والمؤسسات التالية:

– «**جمعية النهضة النسائية**» في بيروت. هدفها تنشيط اليد العاملة، وتشجيع الصناعة الوطنية، واقامة المعارض لها. وضمت هذه المؤسسة مستوصفا صحيا، ومركزا لمحو الامية، وتعليم الخياطة والاشغال اليدوية.

– «**لجنة مخاطبة وزراء المعارف**»: وهدفها السعي الى اصلاح المناهج التعليمية.

– «**المجلس النسائي اللبناني**» وقد تسلمت فيه مراكز امانة السر، نيابة الرئاسة، ثم الرئاسة وقد انضم المجلس الى «**الاتحاد النسائي العربي**». كما أصبحت **ابتهاج** رئيسة لهذا الاتحاد بالتزكية، وذلك في اثر وفاة الزعيمة المصرية **هدى هانم شعراوي**. واحتفظت بمنصب الرئاسة فيه من: ١٩٤٩ حتى ١٩٥٧، ثم من ١٩٦٢ حتى ١٩٦٧ .

– وهي من مؤسسات «**جامعة نساء لبنان**». وغاية تأسيس الجامعة توحيد جهود النسوة اللواتي قمن بالتظاهرات لدى اعتقال الزعماء اللبنانيين: **بشارة الخوري رياض الصلح وعبد الحميد كرامي**.

– «**رابطة الجمعيات النسائيةالخيرية الاسلامية لاحياء بيروت**» وتضم عشر جمعيات موزعة على عدة احياء، وتتراوح اعمالها بين التعليم والتمريض، واعالة العاجزين والمسنين، والاصلاح الخلقي والمساعدة الاجتماعية.

* * *

ان من يتابع درب نضال الزعيمة الرائدة، يشعر بأنه يرسم خريطة للعمل الاجتماعي في لبنان، اذ قلما نقرأ عن نشاط لم تكن هي بين مؤسساته، او في مركز قيادته.

ولم تكتف **ابتهاج** بالعمل الاجتماعي، اذ وعت، باكرا، ان التقدم، ليكتمل، يجب أن يتم على جميع الصعد؛ وهكذا ارتفع صوتها، للمطالبة بممارسة المرأة حقها السياسي والمدني، وكان من أول الاصوات التي ارتفعت في العالم العربي.

عام ١٩٣٦ توجهت برسالة الى رئيس الجمهورية بصفتها رئيسة **«الاتحاد النسائي اللبناني»** وذلك بعدما أطلعت على المعاهدة اللبنانية في الصحف وعلى المادة ٦ و٦ مكرر فيها؛ وقد جاء في وثيقتها: **«قلتم، يا فخامة الرئيس: لي الشرف بان اثبت لفخامة رئيس الجمهورية الفرنسية، أن الحكومة اللبنانية تضمن لجميع تبعيتها، بلا تمييز، المساواة في الحقوق المدنية والسياسية»...**

وانا اتساءل هنا: هل المرأة من أصل لبناني؟ وهل المولودة والمقيمة في لبنان، تدعى تبعية لبنانية، ام لا؟ فاذا كانت كذلك، فقد نالت اعترافا صريحا من فخامتكم بمساواتها بالرجل في الحقوق المدنية والسياسية، والا تكون قد اعتُبرت تبعية اجنبية، فأتساءل، حينئذ: الى أية جنسية تنتمي هذه المرأة؟»

واجابها الرئيس **اده** في حينه بأن الدستور اللبناني ضمن للمرأة هذا الحق، غير أن قانون الانتخاب، حصر ممارسته بالذكور دون الاناث.

لكن هذا لم يثنها عن عزمها، فتابعت مع رفيقاتها النضال، من أجل الوصول الى ممارسة الحق السياسي.

وفي العام ١٩٤٣ قدمت عريضة، وذلك بصفتها رئيسة الاتحاد النسائي العربي جاء فيها:

«ان النيابة ليست وظيفة، بل هي انتداب. وكما ان النائب لا يتخلى عن اعماله في اثناء تمرسه بالنيابة، فالمرأة كذلك، لن تتخلى عن تمرسها بالنيابة... ولا تتخلى عن واجباتها عندما تحاول أن تخدم بيتها الأكبر، اجتماعيا وسياسيا»...

وظل المسؤولون يماطلون، حتى اذار عام ١٩٥١ حين توجهت **ابتهاج**، على رأس وفد يمثل الاتحاد النسائي اللبناني، الى المجلس النيابي، وسلمت مذكرة، الى رئيس المجلس، تعلن فيها رفضها ما صدر عن اللجنة التشريعية من اقتراح مبتور. وظلت تتابع الموضوع، حتى العام ١٩٥٣، حين أقر مجلس الوزراء ممارسة المرأة حقها الانتخابي.

وفي تلك السنة بالذات، انتخبت **ابتهاج**، مع رفيقتيها **لور ثابت والين ريحان** لعضوية المجلس البلدي في بيروت وذلك للمرة الاولى في تاريخ المجلس.

وفي عام ١٩٦٠ تبنت مطلبا لاتحاد الجامعيات اللبنانيات، بصفتها رئيسة «**جامعة الهيئات النسائية**» لمساواة المرأة في فرص العمل، اذ ان الدستور اللبناني لا يميز بين المرأة والرجل الا من حيث الاستحقاق والجدارة.

* * *

ان مواقف **ابتهاج** النضالية عديدة، وقد بدأت منذ ايام الحكم العثماني، وتروي عنها ابنة اخيها، الدكتورة **زاهية قدورة**، الحادثة التالية:

خلال زيارة قام بها **جمال باشا** الى ملاجئ الاطفال، القت **ابتهاج** الصبية كلمتها باللغة العربية، خلافا للتقليد، آنذاك، اذ كان المفروض ان تلقيها باللغة التركية. ولم يرق ذلك للحاكم التركي المعروف ببطشه. فجرى بينهما حوار هو بمثابة استجواب اذ سألها:

- هل انت من رعايا الدولة العثمانية؟

فأجابت: «نعم».

- وهل تعرفين اللغة التركية.

قالت: «لا».

- ولماذا لا تتكلمين اللغة التركية وانت من رعايا ومواطني الدولة العثمانية.

فاستأذنته **ابتهاج** بطرح سؤالها:

- سعادتك مسلم، فلماذا لا تتكلم لغة قرآنك ودينك؟

ومرت لحظات صمت وترقب، وخاف السامعون ردة فعل الحاكم. لكنه ربت كتفها وقال:

- سنلتقي العام القادم. وأجدك تتحدثين التركية وتجدينني اتحدث العربية.

* * *

امتد وعي **ابتهاج** على مساحة العالم العربي، كما كان لقضية **فلسطين** حصة كبرى من اهتمامها. ففي العام ١٩٣٨، وكانت رئيسة للاتحاد النسائي اللبناني، ارسلت احتجاجا شديد اللهجة الى الحكومة البريطانية، تؤكد فيه حق الشعب الفلسطيني في أرضه، كما بعثت،

في السنة ذاتها، كتابا الى الزعيمة **هدى شعراوي**، باسمها وباسم سيدات لبنان وفلسطين والعراق، فوضتها فيه، باسم هذه الاقطار، الدفاع عن القضية الفلسطينية لدى الهيئات الدولية.

* * *

«ان الحياة نتيجة تفاعل جسدي وعقلي وروحي، وليس المفروض على الانسان، ان يبقى بعيدا عن المعترك غريبا عما يجري حوله».

هذا الكلام قالته **ابتهاج** في حفلة تكريم اقامتها لها **«رابطة الجمعيات النسائية الخيرية الاسلامية لاحياء بيروت»** عام ١٩٦٤ .

وسبق لها ان ترجمت هذا القول افعالا طيبة، حين نذرت حياتها، وكرست كل ذرة من نشاطها، لمجتمعها، فهي لم تتزوج، ولم تنشئ عائلة، انما عائلاتها كانت موزعة بين عشرات المؤسسات التي يعود اليها فضل تأسيسها ورعايتها، منذ أن كانت فتاة يافعة، حتى جاوزت السبعين من عمرها.

وفي عملها، كما في حياتها، ظلت **ابتهاج**، مثالا يُقتدى به، بل كانت مدرسة جديدة، شرعت ابوابها لبنات جنسها، ليغرفن من عطائها بلا خوف أو تردد.

لذا، لم يكن غريبا ان تقلدها حكومة لبنان وسام تقدير من رتبة فارس، ووساما آخر برتبة قومندان، كما خصصت مؤسسة الصليب الاحمر عام ١٩٧٠ دورة باسمها واطلقت اسم ابتهاج على القاعة الكبرى في المجلس النسائي اللبناني.

ولم تبالغ الاديبة الرائدة **عنبرة سلام الخالدي**، وقد عرفتها عن كثب، حين قالت فيها:

«ان ابتهاج تاريخ النهضة النسائية المعاصرة، في هذه البلاد... وانها مؤسسة ضخمة، علت في لبنان، فتطلعت اليها انظار المرأة في جميع الاقطار العربية».

وتتابع شهادتها فيها فتقول: إن ابتهاج روح مشتعلة، تصل الى حدود الثورة، فتهز التقاليد، ولا تقوضها، وتجنح الى الابتكار في الاصلاح، ولا تعتنق البدعة، وتؤمن بالتوثب ولا تدعو الى الطفرة. وكأني بها تخشى الانفجارات التي تشتت الشمل، وتبعث الشك في نفوس من تدعوهم الى التئام القوى واصلاح الحال.

متواضعة على رفعة، غنية على زهد، مؤمنة على غير تعصب، مجاهدة على غير ادعاء.

وتقول: **«كانت السباقة في اطلاق اول صوت نسائي ارتفع في شرقنا مطالبا بالحقوق السياسية للمرأة، ومعلنا رأي المرأة المواطنة في الاحداث الهامة التي مرت بلبنان قبل الاستقلال وبعده.»**

- مقابلات شخصية معها.
- مقابلة مع ابنة أخيها الدكتورة زاهية قدورة.
- دراسة في مجلة تاريخ العرب والعالم - عدد ١٥ ك٢ ١٩٨٠ .

عنبرة سلام الخالدي



«قيّد يا أخي: البنات يذهبن إلى النوادي، إلى هنا وصل الاستهتار؟...».

أحتاج، كي أرسم شخصيتها، إلى ريشة من بلور، وألوان أثيرية، ومدى لا يحد من النور والشفافية. ذلك أن السيدة اللطيفة كنسمات العشايا الصيفية، والخفيفة الظل كطيف خطر، والناضجة، والممتلئة نكهة وعذوبة كثمرة استوائية، والمشعة بأنوار ترفعك فوراً من كيانك الترابي... لتضعك على مشارف الكون النوراني.

هذه السيدة التي توحي بالجلال والهيبة، ويتدفق الحنان والمحبة من عينيها، يشدك إليها فيض من السحر، فتشعر بأنه يصعب عليك، وأنت تحاول الكتابة عنها، أن تظل بعيداً عن لمسات سحرها، وتبقى على الحياد، فلا تنضم إلى «حزب» محبيها.

وأنا من هذا الحزب، الذي يقدر فيها شخصيتها المتميزة بالبساطة والانفتاح والرقة والحزم، إلى كونها تمثل جيل الرائدات اللواتي كنا نتطلع إليهن بشوق، ونتابع حكاياتهن بشغف، وكأننا نفتح أبواباً سرية، أو ندخل عوالم الأساطير.

* * *

لقد كتب الكثير عن السيدة **عنبرة سلام الخالدي**. شعرت، وأنا أتابع أحاديث ولقاءات وندوات عقدت معها، بأن الكتّاب أو الكاتبات، في الصحافة أو الإذاعة أو التلفزيون، كانوا يشعرون بأن مهمتهم يجب أن تبدأ من باب دارها، وعلى كلماتها يشحذون أقلامهم.

يقصدونها، ليسمعوا شهادات صادقة، عن الزمان والإنسان فيه... عن مراحل سبقت المرحلة الحاضرة ومهدت لها... عن صراع الرائدات، من أجل تحطيم قيود فُرضت عليهن، لا لسبب، إلا لكونهن من جنس آخر... لأنهن نساء.

* * *

باكراً جداً وعت **عنبرة سلام**، تأثير القيود على شخصيتها، وفي محيطها، فراحت تتلمس الطريق، كي تتصدى لكل قيد، وتتغلب عليه. وكان يساعدها في نهضتها محيط عائلي متميز بالوعي الوطني والحضاري:

فأبوها **سليم علي سلام أو أبو علي سلام زعيم قومه**، رجل كبير النفس، ينطوي صدره على حكمة ورحابة قلما عُرِفتا لدى معاصريه.

وأمها، سليلة أسرة **البربير** العريقة، كانت متعلمة، وهذا من النوادر في زمانها، ومع أن «**الست عنبرة**» تعطي وَالدَها الفضل الأول في دفعها نحو التقدم الشجاع، في العلم والانعتاق، إلا أنها لا تتجاهل دور الوالدة، السيدة **كلثوم**، في تفتيح وعيها وشحذ طموحها.

* * *

صغيرة جداً كانت الفتاة الشقراء اللون، ذات العينين الزرقاوين دائِمتَي البحث والتقصّي، حين وضعت قدمها في بدء طريق الاستقلال.

هي واحدة من أحد عشر مولوداً، تتألف منهم عائلة **أبو علي سلام**، ثمانية بنين، وثلاث بنات، وعنبرة من الحبات التي تتوسط العقد. وقد رسمت صوراً معبرة، وإن مختصرة، لأفراد عائلتها، في

كتابها «**جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين**». ومن خلاله، يطلع القارئ، لا على سيرة آل **سلام** وحسب، وإنما على نمط من الحياة السائدة في بيروت، بل في لبنان، في حينه.

يقول[1] المؤرخ **كمال صليبي** في تقديمه للكتاب: «**من الآن فصاعداً، لن يكتب تاريخ بيروت، في العصور الحديثة، من دون الرجوع إلى مذكرات «الست عنبرة». ولن يكتب تاريخ النهضة النسائية في العالم العربي الحديث من دون الاعتماد على هذه المذكرات بالذات**».

حقاً، لن يكتب تاريخ، ما لم تدرج شهادات شهود، بل أبطال، عاشوا الحياة، وخبروها، وواجهوا الواقع فقبلوا منه ما استساغوه ورفضوا ما يعارض مبادئهم.

ولن يكتب التاريخ، من دون أن يبرز اسم المرأة، والمرأة من وزن سيدتنا الكريمة التي بدأت نضالها في الحياة، مع انبثاق أول خيوط الوعي.

* * *

عاشت النضال السياسي، من خلال والدها، وذلك في مرحلة تفتحها الباكر، وحين كان الحكم العثماني يتربص بالوطنيين، يطاردهم ويقض مضاجع عائلاتهم.

وعاشت صراعاً آخر مع مجتمع محافظ، بل متشدد بالضغط على تحرك الفتاة.

وكان منزل **آل سلام** في قلب المصيطبة، أي في قلب البيئة

البيروتية المحافظة، وعندما ولدت عنبرة في شهر آب، عام ١٨٩٧، كانت المرأة لا تزال متوارية خلف الحجب، تعيش في عزلة عن مجتمعها، بعيدة عما يدور في العلم الخارجي، أي عالم الرجل.

تلقت مبادئ الدراسة عند «**الشيخة**» وختمت القرآن الكريم في السن العاشرة، وأقيمت لها حفلة خاصة للمناسبة، وتابعت دراستها في مدرسة تنتمي إلى جمعية «**ثمرة الاحسان**».

وكان هناك شخص يحث الفتيات على التعلم. هو **أحمد مختار بيهم**، ويدعم القول بالفعل، إذ دأب على تقديم ساعة ذهبية للمتفوقات من الفتيات، وكانت الساعة من نصيب **عنبرة** في إحدى المرات.

وأحمد بيهم لم يكتف بهذه الوسيلة لدفع الفتيان والفتيات إلى التعلم، بل كتب ووزع شعارات منها: «**تعلم يا فتى، فالجهل عار**». **أو** «**إلى العلم... إلى العلم...**».

* * *

كانت طفلتنا في حدود العاشرة من عمرها، حين بدأت تتسرب إلى سمعها كلمات تهديد، وملاحظات قاسية، من نساء يصادفْنها في الشارع، ولا يرضين عن انطلاقتها.

وكتبت في مذكراتها تقول: «**دخلت السور الحديدي وأنا في العاشرة من عمري، أتعثر في مشيتي ضمن إزاري، وانضممت إلى أمي وجداتي اللواتي سبقنني إليه**». وكان أكثر ما يضايقها، من انضمامها إلى مجتمع النساء باكراً، انها منعت من مجاراة اخوتها في

اللعب والقفز في الحديقة، أو تسلق الأشجار وجني ثمارها.

* * *

وتابعت الصغيرة الطموحة دراستها، من العام ١٩٠٨ وحتى ١٩١٤ في مدرسة «**مار يوسف**» للبنات، ثم في «**المقاصد**» وذلك بعدما تسلمت إدارتها، وخلافاً للتقليد، **جوليا طعمه**. وكان والدها قد لاحظ شغفها بالعلم والمطالعة، فلم يشأ أن توقف دروسها، بل استدعى كبار الأساتذة كي يشرفوا على تدريسها في البيت آداب اللغة العربية وقواعدها منهم: **الشيخ عبدالله البستاني**.

وقد رضي **الشيخ عبدالله** أن يقوم بالمهمة، وهو في حدود السبعين من عمره، كرمى لصداقته مع والدها. وكانت هناك أستاذة للغة الفرنسية، والأب **يوسف الزهار** للعلوم، كما دعيت **آنستان** لتعليمها الموسيقى.

هذه الخلفية الثقافية، مضافة إلى خبرة الصبية من خلال رحلات إلى الخارج، ثم تشجيع معلمتها وصديقتها **جوليا طعمه**، لتقرأ، وتتفتح على انعتاق المرأة، بدأت تفعل في تكوين شخصيتها المميزة.

وكانت «**الست جوليا**» تمدها بالكتب الممنوعة في حينه، مثل كتاب **قاسم أمين**: «**المرأة الجديدة**».

* * *

وتروي السيدة **عنبرة**، في مذكراتها، حكاية طريفة عن دعوة تلقتها من صديقتها **جوليا**، لتحضر إلى نادي الأحد، وتستمع إلى محاضرة لها. وتواعدتا على أن تعرّج عليها **عنبرة**، لتصحبها في عربتها، وحين بلغتا باب النادي، وهمت بالترجل، سمعت احدهم يقول لرفيق: «**إلى**

هنا وصل الاستهتار؟ قيد يا أخي، البنات... يذهبن إلى النوادي، وهذه ابنة أبو علي سلام تحضر النوادي المختلطة».

ولم يكن في يد الابنة الطيبة، والتي لم تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها، إلا أن تعتذر من صديقتها، وتطلب من السائق أن يعيدها إلى البيت.

ولم يتوقف تدخل تلك الفئة المتعصبة عند هذا الحد، ففي اليوم التالي ظهرت جريدة لهم، واسمها «**أبابيل**» تحمل «**المانشيت**» التالية: «**البنات في النوادي...**» وهنا تضيف السيدة عنبرة: «**تلك كانت من أشد العوامل التي جعلتني أرفض هذه العقلية، وأسعى إلى تطويرها**».

* * *

وكانت تستلهم عناصر وعيها الباكر، من كلمات **قاسم أمين**، الذي تعتبره القائد الأول للحركة النسائية في العالم العربي. وقد سمعته يخطب خلال زيارتها **القاهرة**، بعدما قرأت كتبه «**المحرضة**» في **بيروت** وكانت ترى فيه «**صورة الرجل الذي فقدناه في بيروت**» وتعني **أحمد بيهم**.

أما المرأة الملهمة في هذه المرحلة فقد تمثلت في سيدتين هما: **هدى شعراوي**، في مصر، **وجوليا طعمه** في بيروت.

* * *

تابعت **عنبرة** بناء شخصيتها على خطين: المطالعة، والدراسة على أساتذة كبار، ثم المشاركة في الحياة العامة، ومنذ سنوات المراهقة.

وتتساءل: «**كيف كانوا ينشرون رسائلي ومقالاتي وأنا ابنة ست عشرة سنة؟ أتراه شوق المفكرين والقراء إلى سماع صوت المرأة؟**».

وفي هذه المرحلة بالذات، تلقت دعوة لإنشاء جمعية نسائية تهتم بالتربية، ورعاية المتفوقات. وكانت الدعوة من آنسات سمين أنفسهن «**سبطات** (أي حفيدات) **الأمير عبد القادر الجزائري**».

وهكذا ولدت جمعية «**يقظة الفتاة العربية**» على أيدي صبايا لم تجاوز كبراهن الثامنة عشرة من العمر. وقد لجأن في حينه إلى السيدة **نجلاء بيهم** ورَجَون منها أن ترئس الجمعية، كي تصدر الإجازة باسمها.

وتتابع السيدة عنبرة: «**وكانت أول جمعية لفتيات مسلمات في العالم العربي**». تأسست في شهر آب من عام ١٩١٤ - أي مع بدء الحرب العالمية الأولى - وهذا ما اضطرها الى أن توقف نشاطها بسبب هجرة الناس من **بيروت**.

كذلك ساهمت الصبية **عنبرة** في تأسيس «**النادي الاجتماعي للفتيات المسلمات**». وهو الأول من نوعه في البلاد العربية. كما اشتركت مع الأديبة **سلمى صايغ** في تأسيس «**جمعية النهضة النسائية**» لتشجيع المصنوعات الوطنية.

* * *

وتمر **عنبرة** الكاتبة، بكثير من الرهافة، على حدث هام ترك عميق الأثر في حياتها خلال تلك الفترة، وهو تعرفها الى شاب كان موضع إعجاب الجيل الجديد هو الصحافي **عبد الغني العريسي**، الذي كان

يقف في الصف المتقدم لمناهضة الحكم العثماني، من خلال جريدته «**المفيد**».

تم التعارف بين الصبية وفتى الأحلام في دار إحدى الصديقات وقد رغبت **عنبرة** في ذلك إذ كانت ترفض أن تربط مصيرها بمصير شاب تجهله.

وهذه خطوة جريئة بالنسبة إلى زمانها، وتصفها فتقول: «**ذهبت إلى الاجتماع وجلة خائفة من إقدامي على خطوة كانت في منتهى الجرأة، بل في منتهى الوقاحة حسب تقدير المجتمع آنذاك**».

ولم يخيب الشاب أملها، فكان اللقاء موفقاً، والاعجاب متبادلاً، واتفقا على المراسلة، ثم تقدم بطلب يدها من أهلها، الذين تمهلوا في الجواب.

وهنا، تدخل القدر، إذ وقعت الحرب، فهاجرت عائلة **سلام** إلى إحدى قرى **الزبداني** في سوريا. و**عبد الغني** لجأ مع جريدته إلى **دمشق**. وحين التقت به هناك، أفهمها بأن مخاطر جمة تحيط به وبرفاقه، إنما عليها أن تتشجع.

وكانت في غاية الشجاعة حين صمدت أمام النبأ الفاجع الذي جاءها، مع صباح السادس من أيار عام ١٩١٦ : لقد اعدموا **خطيبها**، وكان من شهداء الدفعة الثانية، إذ شنقوا شهداء الدفعة الأولى في آب من العام ١٩١٥ .

* * *

هذه الصدمة تركت في نفس الصبيةالرقيقة، جرحاً بليغاً حاولت أن تدمله بالعمل الاجتماعي والثقافي. وكانت قد عرفت ألماً مشابهاً في تجربة سابقة، حين فقدت أخاها **محي الدين** وهو في العشرين من عمره.

هذا الحزن العميق، والذي يتغلغل حتى أعماق الجذور، تحول في شخصية **عنبرة** إلى رادف شحذ منها الفكر، وأنار العقل، وزادها رهافة حس في القضايا الوطنية والإنسانية.

لقد انسحبت من ذاتها وحاولت أن تدفن «أناها» في عطاء متواصل، لكل من حولها: المساعدة لأمها، العاطفة لاخوتها، الدعم والصداقة لرفيقاتها المناضلات؛ وهذا ما جعلها ترفض طلبات زواج راحت تنهال عليها من كل صوب، لما لعائلتها من مكانة، ثم لجدارة شخصية بكرت في إثباتها. وقد تجاوزت ذلك كله، وتابعت خط الطموح، وغايتها هذه المرة الدراسة في **إنكلترا**، حيث سبقها أخوها. لكن والدتها وضعت عليها شرطاً وهو أن تصحب شقيقتها الصغرى **رشا** والتي كانت لها بمثابة ابنة روحية.

وقبلت بالشرط، وسافرت في النصف الأخير من عام ١٩٢٥ .

* * *

بقيت في **إنكلترا** سنتين، درست خلالهما اللغة الانكليزية، والأدب، وأسلوب المعيشة والنظام. وحين رجعت من هذه الرحلة دعتها جمعيتها لتلقي محاضرة حول انطباعاتها الشخصية.

وكان الجمهور مختلطاً والمحاضرة مفصلة تستغرق الساعتين، مما

دفعها الى ان تستشير والدها في أمر سفورها، فكان جوابه: «**تصرفي حسب ما ترينه مناسباً**»... ووجدتها فرصتها الذهبية للانعتاق. وانطلقت بعد ذلك تخطب في المؤتمرات النسائية، المنعقدة في لبنان أو في الخارج.

هذا التألق الثقافي والاجتماعي، كان من الطبيعي أن يلفت الأنظار إلى الصبية العاصية على الزواج. وكان هناك شاب يرصد تحركاتها المميزة بصمت.

ثم لم يلبث ذلك الشاب أن خرج عن صمته، حين كتب الى اخوتها يطلب خطبتها. وجاءه رد الأخوة سلباً. وهنا لجأ إلى صديقتها **جوليا طعمه دمشقية**، التي دعتها إلى الغداء، وحضر **أحمد سامح الخالدي** خصيصاً من **القدس**، إلى **بيروت** كي يلبي تلك الدعوة، ويتعرف إلى الأديبة المتألقة.

وكان **أحمد** شاباً وسيماً، مثقفاً، واسع العلم والمعرفة، واثقاً بنفسه، ويشغل منصب مدير الكلية العربية في القدس، وهو المسؤول الأول عن التعليم العربي في فلسطين.

وكانت مصارحة، بين الاثنين، خلال لقاء ثان وثالث، إلى أن عقد القران في القدس بتاريخ ٩ آب، عام ١٩٢٩، بحضور الأهل، وبحسب التقاليد المتعارفة بأن يكون العقد في مقر العريس.

* * *

وندخل مرحلة هامة، في حياة **السيدة عنبرة**، هي مرحلة النضج الأدبي، وجني ثمار العلم والمعرفة، والتي أعدت لها خلال السنوات

المنصرمة. كما نبدأ مع مسيرتها كأم مثالية، أقبلت بشغف على حضن طفلي **أحمد** - **سلافة ووليد** - بكل ما في صدرها من مخزون العاطفة والأمومة التي تقول فيها:

«... وأنا أعتقد أنني أم قبل أي صفة أخرى، ولهذا فقد انسجمت مع طفلي هذين كل الانسجام، وكانا سبباً في إضفاء البهجة على البيت، وإضفاء مسؤولية على عاتقي، محببة إلى نفسي».

كذلك رافقت نضال زوجها السياسي والثقافي، إذ دخلت القدس وهي تشتعل. وفي عام ١٩٣٦ تشردت مع عائلتها مرتين. وشهدت الانتفاضات الوطنية وكانت، مع زوجها، من تلك الحركة في موقع القلب النابض.

وقد دفعت الضريبة عدة مرات، إحداها عام ١٩٣٨ حين استدعيت إلى **بيروت**، بسبب مرض والدها ثم وفاته. ولما عادت إلى منزلها في **القدس** وجدته خالياً. كما أجبر زوجها على إخلاء الكلية العربية.

* * *

لم تتخل عن نشاطها الأدبي، فانصرفت إلى ترجمة **«الالياذة»** و**«الأوذيسة»** عن الانكليزية، وكتب لها المقدمة **الدكتور طه حسين**، ثم اتبعتها بترجمة **«الانياذة»**. وكانت أول سيدة تلقي حديثاً نسائياً من إذاعة **القدس**، حين تسلم إدارتها الشاعر **إبراهيم طوقان**. وتذكر انها كتبت للمناسبة، بحثاً عن **سكينة بنت الحسين** التي تعتبرها رائدة الوعي النسائي والأدب الرفيع.

* * *

وظلت تساند زوجها في نشاطاته التربوية، والثقافية، خصوصاً بعدما ألف «**لجنة اليتيم العربي**» و «**معهد دير عمرو**» المهني، إلى جانب إدارته للكلية العربية، وتقول:

«إن اضطرار أحمد إلى التخلي عن مشاريعه هذه، أصابت منه القلب. وحين اضطر إلى الرحيل، مع العائلة، إلى لبنان في نيسان ١٩٤٨، نقل بعضاً من نشاطه معه، فأنشأ مدرسة في قرية «الحنيه» في الجنوب، من أجل أبناء المهاجرين الفلسطينيين تضم مدرسة ومستوصفاً. وكان يخطط لبناء مدرسة في الشمال قبل أن يوافيه الأجل وهو في الخامسة والخمسين من عمره».

* * *

ذكرت **الست عنبرة** لمحة عن مشاعر الأمومة في صدرها، لكن الأولاد والأحفاد، وحدهم، يمكنهم أن يعرفوا قدرها أمّا وجدة سعيدة. فقد رزقت من زواجها **بأحمد الخالدي** أربعة اولاد، هم: **أسامة ورندة وطريف وكرمه**، الصغرى التي توفيت في الأشهر الأولى من حياتها.

بلغ أولادها، جميعاً مراتب سامية في العلم، ويشغلون مناصب رفيعة في مجالات منوعة يضيق المجال عن تفصيلها. وحين تتحدث هي عنهم. تقول:

«أشعر الآن، بأن عليّ أن أذكر شيئاً مفصلاً عن الأولاد، تحدثاً بنعمة اللّه، وقد عاهدت نفسي أن أذكر ما لهم من الحسنات والسيئات، بكل تجرد، ولكنني حينما بدأت أكتب عنهم، ضحكت من هذا التجرد المدعي، لأنني لا أقدر أن أجد لهم شيئاً من

السيئات، وهل هذا شأن كل أم فخورة بأبنائها، يا ترى؟...»

وقد كتبت فصلاً عن كل منهم في سياق ذكرياتها. أما الأحفاد، الذين أهدتهم كتابها القيّم، فالجدة **عنبرة** تحقق في علاقتها بهم المثل الشعبي القائل: «**ما أعز من الولد إلا ولد الولد**» ولها منهم عشر بركات، تخبر عنها الأجيال الطالعة. وتشهد كم أنه في استطاعة الإنسان أن يكون مغروساً في بيئته، مثل حبة البركة.

- جولة في الذكريات بين لبنان وفلسطين - عنبرة سلام الخالدي.
- مقابلة شخصية مع السيدة عنبرة.

أسماء ابي اللمع



«ستذكر كلية البنات دائماً، تلك الآنسة التقية، النقية التي وهبتْ خمسين سنة من عمرها لخدمة العلم...».

هذه المرة، سوف يكون بعض الكلام حديثا نابعا من القلب؛ ذلك ان السيدة موضوع الكلام ليست، بالنسبة الي، سيرة في كتاب، ولا وجها يرحل من البعيد؛ يأتيني من دنيا المجهول، او يطرق الباب، ليدخل ببرود وحيادية، ويقف في الصف الطويل، حيث تتابع قافلة الناجحات مسيرتها.

* * *

وجهها يطلع من ناحية القلب، كما تحتل صورتها زاوية حميمة من زوايا الذاكرة، وتقيم، بهدوء، وتواضع ورضى، بعض صفات ميزتها في الحياة كما في العمل.

* * *

انها اسماء ابي اللمع.

الاميرة المربية، او المربية الاميرة. لم اذهب اليها في اروقة المكتبات، مع ان كتاب السيرة للنساء الرائدات في لبنان، والعالم العربي، لم يغفلوا اسمها وفعلها، بل تحدثوا عنها، مثلما يتحدث اي باحث علامة، من خلف منظار الحقائق النافرة، وتبقى التفاصيل الصغيرة، والتي تنمو، مع نمو الدقائق واللحظات من عمر الانسان، وتتفاعل مع الآخرين، تدخل عوالمهم، وتفسح لهم في المجال، كي يعرفوا عالمها عن كثب.

كيف تكون المعرفة، اذا لم تظهر في تلك الصيغة الفريدة التي تجمع بين الاستاذ والطالب؟..

وكيف تصبح تلك المعرفة اذا نمت نبتة الالفة والمحبة والثقة بين الطرفين؟...

* * *

نعم عرفتها استاذة، بل مديرة المعهد الذي قدر لي دخوله، بعدما اقتلعت قدمي من تربة قريتي الجنوبي،، وجئت انهل العلم من ارقى الموارد التي بلغتنا اخبارها، في تلك المرحلة البعيدة.

خريف العام ١٩٤٨ . الدنيا في غليان. احداث جسيمة تحصل، بعيدا عن وعينا المراهق؛ وابواب المعاهد اللبنانية تستقبل وفود الطلاب، يؤمونها من كل قطر عربي..

فوج جديد يصل من جهة الحدود الجنوبية. ربما كان اكتفى بثانويات بلده، وهي كثيرة، وذات مستوى ممتاز...

لكنه العام ١٩٤٨ . اي مطلع الهجرة الفلسطينية، وبدء المأساة التي ستعيش في ضمير كل من مسته شرارتها.

* * *

وانا، في سنوات المراهقة الاولى، اطرق، مثل الجماعة، ابواب المعهد الكبير، الذي يتسلم رئاسته الاستاذ **شارل سعد**، معهد **الشويفات**... بكثير من الشوق وصلت، ابحث لي عن مقعد يحملني لابلغ الدرجة العلمية التي تؤهلني لدخول الجامعة.

الحلم كبير؛ والآمال تحجب قامتي النحيلة، وكياني الصغير.

وكانت هي اول من استقبلني، ومسحت ببسمتها الهادئة، ونظراتها الطيبة، ذلك القلق الذي يرافق الخطوات الاولى لكل غريب عن الجو، وعن الديار وسكانها.

قالت لي، من دون ان تترجم قولها الى كلمات: ان الارض، مقر امان، ومرتع طمأنينة، ما دامت فيها تلك الخمائر المباركة.

وكنت اعرف جيدا معنى البركة، تطفح من وجه رضي، من بسمة مشجعة، من عينين ترشحان طيبة وسلاما ومن رأس تتوجه هالة من البياض الناصع...

نعمة السنين الخوالي، وكنت قد عرفتها، في نموذج آخر، في كيان آخر، سلخت من حضنه كياني، مضحية بالدفء العاطفي، في سبيل العلم والمعرفة؛ ومن اجل السعي لتحقيق المطامح والاحلام.

* * *

مس **اسما...**

اي: الانسة **اسماء.**

ذاك كان اسمها، نناديها به، صغارا وكبارا، ببساطة، ومن دون القاب... مع ان لقب «**اميرة**» من حقها، وينسجم كل الانسجام مع تصرفها وشخصيتها». فهي سليلة تلك الشجرة اللبنانية الاصيلة **(آل ابي اللمع)** ووارثة شرعية اللقب «**اميرة**» مقدمة لاسمها.

لكنني لا اذكر اني سمعت من خاطبها، مواجهة، باللقب... كانت ترفض ان يقوم جدار، بينها، وبين المحيطين بها، صغارا وكبارا. كما آمنت، بأن الانسان، هو في اعماله لا في الاقوال او الالقاب.

* * *

هناك تاريخان، لم اتحقق منهما تماما، اذ ان المراجع المكتوبة لم تثبتهما، والاشخاص الذين لملمت من ذاكرتهم، بعض الحقائق عنها، غابت عنهم الارقام: اي تاريخ الولادة، وتاريخ الوفاة. لذا سأترك المجال مفتوحا امام القراء، ممن عرفوها، مديرة، او استاذة، او مواطنة..، كي يوافوني بهذين التاريخين، في سبيل التأريخ، ولوجه الحقيقة، ولاستكمال ملامح شخصيتها.

ولكن، هناك تاريخ لم يغفله اي مرجع تحدث عنها، وهو تاريخ بدء خدماتها في المجالين: التربوي والاجتماعي.

* * *

ولدت الاميرة **اسماء ابي اللمع**، في **بيت مري**، لبنان. ويبدو انها فقدت ابويها في سن مبكرة، فعاشت مع شقيقتها **الاميرة نجلاء** وشقيقها **الامير رئيف** عيشة يتم. وكانت تتعاون مع **نجلاء على تربية هذا الأخ الذي اصبح فيما بعد، طبيبا مرموقا، فوزيرا للصحة، ثم سفيرا للبنان في الخارج، عدة سنين...**

وفي مقابلة تلفزيونية اجريت معه، في اواخر ايامه، تحدث الامير رئيف عن فضل الشقيقتين عليه، ومرت العبارة من دون تعليق من السائلة والتي لم تكن لديها، على ما يبدو، اية فكرة عن رائدتين كبيرتين من رائداتنا في التربية، وفي الصحافة والخطابة.

* * *

ولوجه الحق. اقتطف بعض عبارات، وردت في خطاب القاه الدكتور **رئيف**. في متخرجي مدرسة الشويفات عام ١٩٦١ جاء فيه:
«**منذ مطلع هذا القرن، حتى السنة الماضية، لم تخل الكلية الوطنية**

في الشويفات من احد افراد عائلتنا، تلميذاً او معلما. ولم تكن الصلة بيننا وبين الكلية صلة تلامذة برئيس وبمدرسة، بل كانت صلة ابناء بأب وام...».

سوف يتضح مغزى هذا الكلام، اكثر، حين اتابع كتابة سيرة الاميرة **اسماء**؛ لكنني اعود الآن، الى شهادة الاخ في اخته، وقد وردت في الخطاب: «**ستذكر، دوما، جدران كلية البنات اسماء ابي اللمع، تلك الآنسة التقية، النقية، التي وهبت خمسين سنة من حياتها، لخدمة العلم في تلك الكلية، كمعلمة، ثم مديرة...**»

هذه الشهادة، وهذا التذكر، جاءا بعد رحيل الشقيقة، عن المدرسة، بل وعن الحياة..

وقبل متابعة الحديث عن المربية الاميرة، لا بد من وقفة ازاء سيرة الاميرة الاخرى. صاحبة مجلة «**الفجر**» والخطيبة المفوهة **نجلاء ابي اللمع**، وكانت رائدة في الصحافة، اذ يعود تاريخ اصدار مجلتها الى العام ١٩١٩ . كما انها لقبت بأميرة المنابر تقديرا لموهبتها وتفوقها في مجالي: الكتابة والخطابة. وقد عاشت «**فجرها**» في لبنان، وانتشرت طوال خمس سنوات، قبل ان يحول الزواج مجرى حياتها، فتسافر، برفقة زوجها الى **كندا**. حيث تابعت نشر المجلة، لعدة سنوات قبل ان تتوقف نهائيا.

واعود الى **الاميرة اسماء**، في بدء مسيرتها: كان معهدها الاول راهبات المحبة، في بيروت. منه انتقلت الى مدرسة **الشويفات**، حيث تابعت الدراسة، والعناية بأختها واخيها وكانا اصغر منها سنا.

وقد روى لي **الامير فاروق ابي اللمع**، ابن شقيقها، ان العمة

اسماء رفضت قبول مساعدة احد الاقرباء، من ابناء العم، في اثر وفاة والديها، وفضلت ان تعمل، وتساعد اختها واخاها، على ان تتلقى عونا مذلا من القريب.

* * *

وكان اليتم تحديا للاختين كما للاخ، وحافزا، دفعهم جميعا الى التفوق. وما كادت **اسماء** تنهي دراستها وتتخرج من مدرسة الشويفات عام ١٩٠٢، حتى انخرطت في سلك التدريس وقد عملت في المعاهد التالية:

راهبات الزيارة. المقاصد الخيرية. الأمور الخيرية. زهرة الاحسان ثم في كلية **الشويفات** لمدة قصيرة، قبل ان تتسلم ادارة معهد البنات فيها، واستمرت في الادارة خمساً وثلاثين سنة...

* * *

لكن نشاط هذه الرائدة، لم يتوقف عند حدود المدرسة، بل تعداه الى المجتمع، شأن كل سيدة واعية من نساء زمانها. فقد كانت عضوا عاملا في عدة جمعيات خيرية منها: **غادات لويزة، تهذيب الفتاة، اغاثة البائس، الرحمة المستترة، الاجتهاد الروحي، اتحاد الشابات، زهرة الوطن، الرفق بالحيوان، الامتناع عن المسكرات، جمعية متخرجات الشويفات...**

واغلب الظن ان اكثر هذه الجمعيات بات اسما للتاريخ.

* * *

اما نشاطها الثالث، فكان في الحقل الادبي. ومثلما اعتبرت التربية

واسطة لخدمة النشء والمجتمع، كذلك اعتبرت القلم رسول خير ووسيلة لنشر التقدم والوعي، فاستغلته مستكملة به رسالتها الانسانية.

ومن المجلات التي نشرت مقالاتها التربوية والاجتماعية: **فتاة الشرق، الحسناء، فتاة لبنان، مدرسة التهذيب، الفجر.**

* * *

ولم تكن **اسماء** تقل عن شقيقتها **نجلاء** موهبة في الخطابة او الوقوف فوق المنابر، وكانت تلك احدى اهم وسائل الاتصال بالجمهور والرأي العام. وقد سمعتها، مرات، ترتجل خطبها، من فوق المنبر المدرسي، او تكتبها، وتضمنها عصارة تجربتها وافكارها، وهي توجه الى الجيل الجديد تربتها الخصبة للبذار الخير. وظل هذا النشاط، في وجوهه الآنفة الذكر، رفيقها في كل خطوة؛ ففي العام ١٩٢٧ قامت برحلة الى **أميركا** حسب ما ورد في مجلة «**الخدر**» وهناك القت عدة خطب، في الندوات النسائية والاجتماعية المهجرية.

وثمة شغف للاميرة **اسماء** بالمسرح، كان يتجلى في مثابرتها على اعداد ما يناسب الجو المدرسي منها، مستعينة بالاصدقاء من الكتاب المعروفين، او باساتذة اللغة العربية في المعهد. حتى اذا تم اختيار المسرحية الملائمة، بدأت ورشة العمل، الذي يستهلك كل ساعة من ساعات الفراغ، لديها، ولدى الطالبات، المختارات لاداء الادوار التي تبرز مواهبهن.

واذكر، اننا في المعهد الداخلي، كنا نتبع نظاما متشددا، بل صارما، خصوصا فيما يتعلق بأوقات الدرس، والنهوض، والنوم...

لكن مواسم المسرحيات كانت تعفينا من النوم الباكر، وتنسينا

حدود الزمن، الى ان تحل ساعة الاستحقاق... اي موعد تقديم المسرحية، امام الجمهور المؤلف، في غالبيته، من اهل الطلاب والطالبات.

واذكر، من هذا البعد الزمني، تلك الجدية التي كانت تحيط بها اي عمل فني، اذ اعتبرته ارقى وسائل التعبير.

* * *

عام ١٩٢٣ اقيم للاميرة **اسماء ابي اللمع**، احتفال اليوبيل الفضي، وذلك لمناسبة انقضاء ربع قرن على خدمتها في التعليم. واذا راجعنا تاريخ تخرجها رسميا من المدرسة الثانوية (عام ١٩٠٢) يتضح لنا انها بدأت التدريس وهي طالبة وقبل ان تتخرج بخمس سنوات. كما قلدت وسام الاستحقاق عام ١٩٤٦ تقديرا لخدماتها.

لم تترك **الاميرة اسماء** مؤلفات. كما ان مقالاتها وخطبها لم تجمع، وبقيت منشورة في صحف ومجلات الحقبة المبكرة من القرن العشرين. وبلغني أنها كتبت بعض مذكراتها، لكنني لا اعلم اين وصلت بهذا المشروع، لان يديها كانتا ممتلئتين، وفي كل لحظات عمرها، بالعمل المثمر، ولكن... في سبيل الآخرين.

ولاني ذكرت اليدين، فلا بد من التنويه بإعاقة رافقت الاميرة طوال حياتها، وهي شلل في ذراعها اليمنى، ومن حدود الكتف. لكنها لم تترك الاعاقة تنقص جزءا من نشاطها، وقد اخضعت اليد المعطلة لاوامر الارادة القوية البناءة، فكانت تستخدمها في اعمالها اليومية، كما في شغل الابرة، وحياكة الصوف، وهذه من هواياتها.

كذلك تعودت ان تقوم بخدمة نفسها، وببعض الاعمال المنزلية

الخاصة بها.. ولا تزال صورتها عالقة في الذاكرة وهي تحمل المكنسة، وتسبقنا الى تنظيف المماشي والشرفات، او حتى غرف نوم الطالبات، كي تعطي احداهن، درسا في التواضع الى جانب اتقان العمل المنزلي.

* * *

لكن الدرس الاهم، الذي غرسته في نفوس طالباتها، هو التسامح والمحبة... بل المحبة، اولا واخرا. وكانت «العملة» التي تتعامل بها، مع عالمها، في محيطها المدرسي، كما في المجتمع.

ثمة ناحية مهمة من شخصيتها تكون، في نظري، سر نجاحها في دنيا التربية والادارة، وهي ايجابيتها الطبيعية، وانفتاحها على كل جديد، ورحابة صدرها، والثقة التي نجحت في اقامتها بينها وبين الطالبات، من كل الاعمار؛ فقد كانت المديرة - الملجأ، لا الشخصية التي تحكم بالحديد والعصا.

وضعت اللين مكان القوة. واللطف موضع العنف، وجعلت الرفق بدلا من الادانة. وظلت، على مر السنين، ترصد تفتح البراعيم الجديدة في كل موسم مدرسي؛ مدركة أن كل جديد له خصائص تميزه عن كل ما سبقه، بل وما سيلحق به.

* * *

والاميرة التي اختارت الوحدة رفيقة عمرها، اوجدت الى جانبها عائلة كبيرة، ينتمي افرادها الى معظم البلدان العربية، بل والى بعض الدول الاجنبية.

وكان الجميع يؤمون مدرستها للعلم، كما يقصدون حضن الام، التي وهبت كل خصائص الامومة، وان لم يقدر لها ان تكون أما..

او ليست عاطفة الام التي تنضح من كلماتها الوداعية للمعهد حين غادرته: «**لقد يسر لي، حسن الطالع، منذ ثلاث وستين سنة، ان اكون من طالبات هذه الكلية، ثم من معلماتها، لبضع سنوات، ثم مديرة فرع الاناث مدى خمس وثلاثين سنة تقريبا. غادرتها بسبب مرضي. غادرتها والقلب يتلفت الى مرابعها بمرارة الجد الاول ساعة مغادرته الفردوس، ولم يبق لي من اجوائها الطيبة سوى ذكريات حلوة، غالية، عابقة بالطيوب، اعيش عليها الآن، في معتكفي**»...

* * *

ان رائدة من هذا النوع ستظل مستمرة في تعاليمها المغروسة عميقا في صدور طالباتها. لانها بإخلاص ومحبة اعطت كل ما لها، كل ما عندها، في سبيل خدمة الانسان، مقتدية في ذلك بقول الحكيم الصيني: «**اذا شئت ان تغرس للاجيال المقبلة، فعليك ان تغرس بذورا انسانية جيدة..**»

- مقابلة مع ابن شقيقها الامير فاروق ابي اللمع.
- من مقابلات شخصية معها، ومع اصدقاء.

سنية حَبّوب



«.. وفكرت جدياً في الرجوع، لكن صوت أمي ظلّ يرافقني ويدفعني لأقف بثبات: - إذهبي يا ابنتي، ولا تتراجعي».

اسمها، في المجتمع اللبناني، يعني الريادة في حقل علمي، قلما تجرأت المرأة على أن تغرس فيه قدمها.

فالطب، في زمانها وفي الأزمنة التي سبقت، كان من اختصاص الرجال، فكيف توفر لفتاة خلف الحجاب، متحدِّرَة من أسرة بيروتية عريقة ومحافظة، كيف توفر لها أن تعبر محيطات التقاليد وتتجاوزها، لتبلغ قمة التحصيل العلمي والمهني؟...

* * *

للإجابة عن هذا السؤال، كان عليّ، أن أقصد المراجع المسجلة في صدور الصديقات، الزميلات والأمهات اللواتي وضعن أجيالاً من الأولاد، على يديها. ذلك أن الطبيبة الماهرة والسيدة الكبيرة **سنية حبوب**، كانت مقلّة في كلامها، بقدر ما كانت سخية في عطائها، للمقربين منها، ولكل من تصلها بهم صلة إنسانية.

إذًا، فإن هذه المحاولة لتسجيل نتف من سيرة حياتها، ورسم معالم الطريق التي سلكتها، هي بدء لحكاية طويلة، قد تكتب يوماً خدمة للأجيال الطالعة، وبالأخص، خدمة لفتيات هذه الأيام، اللواتي يجدن السبل ممهدة أمامهن، وكل ما يطلب منهن أن ينقلن الخطى في اتجاه هدف يثير حماستهن.

ولا بد لي من رسم المعالم الأولى لخريطة مسيرة تصاعدية، بدأتها

طفلة لا ينقصها الطموح. ومن ورائها يقف أب وأم تواقان إلى تعليم اولادهما، من الجنسين، التعليم العالي.

فالأم **عادلة الجزائري**، التركية الأصل، من جزيرة **رودس**، كانت تجهل القراءة والكتابة، وتسعى لتعوض أولادها من نقص رافقها طوال حياتها.

والأب **مصطفى حبوب**، تاجر بيروتي معروف، منفتح على العالم، ويقدر بحدسه العملي، أن غاية الإنسان هي أن يتطلع أبداً إلى الأمام، ويبني في سبيل الغد لا في سبيل أيام ولّت.

وهكذا وجدت الطفلة سنية - والتي لم تكمل عامها الثالث - وجدت نفسها في عداد التلامذة الذين يفدون على **مدرسة الشيخ عمر**، القائمة عند «**بوابة الدركي**» مقر المجلس النيابي في بيروت. وكان ذلك، في السنوات الأولى التي فتحت بوابة القرن العشرين.

ونقرأ على جواز **سفر الدكتورة حبوب**، أنها مولودة عام ١٨٩٩ . أي عند الحد الفاصل بين قرنين. وصحّحت هي: «**ربما كانت الولادة بعد سنة من هذا التاريخ، إذ لم يكن هناك تسجيل أكيد**»... إلا أنها متأكدة، حتى أقصى حد، من تلك الحماسة التي دفعتها، خطوة اثر خطوة، لتتابع مسيرتها التصاعدية.

* * *

وتصف الدكتورة مدرستها الأولى فتقول: «**كنا خليطاً من الأناث والذكور، نؤم المدرسة مدفوعين بحماسة الأهل، لنحفظ القرآن. أما التربية بمعناها العصري، فلم تكن موجودة، إذ كان التقويم الخلقي يتم بواسطة «الفلق» للصبيان، والعصا للبنات.**

من مدرسة الكتاب، انتقلت الطفلة إلى مدرسة أخرى صغيرة اسمها مدرسة «**النضال**»، فقضت فيها بضعة أشهر قبل أن تدخل مدرسة «**رأس بيروت**» تتأبط «**الزوادة**» بسبب بعد المنزل، واختصاراً للتنقل على الطرق. ولم تعرف النظام المدرسي الصحيح إلا في مدرسة «**الست أليس**» «**التي جعلت الطالبات يجلسن فوق المقاعد، وأمامهن طاولات للكتابة...**». «**الست أليس**» **علمتنا النظام والانشاد، وأدخلت نهضة جديدة إلى عالم التربية حينذاك. وفي مدرستها ختمت القرآن**».

* * *

كانت هذه مرحلة الدراسة الابتدائية، البعيدة عن أي منهج وأي تنظيم. وكانت في حياة **سنية** الطفلة، نافذة هامة، تطل منها على دنيا جديدة، ومختلفة عن مجتمعها البيروتي، وذلك خلال زياراتها لجديها لأمها، في **رودس**، إذ كانت تختلط بأناس من بيئة مختلفة.

وعلى اثر عودتها من إحدى الزيارات، دعتها صديقتها **سهيلة سعادة** لتصحبها إلى مدرسة حديثة، أنشأها المبشرون السكتلنديون.

وتروي الدكتورة ما تذكره من تلك المرحلة فتقول: «**رافقت سهيلة، وكنت مجتهدة. لم أتغيب يوماً واحداً عن الصف. وحين تخرجت، كنت قد أنهيت دراستي الابتدائية**».

وتذكر أنها كانت شغوفة بالمطالعة منذ تلك السن الباكرة، فتقرأ كل ما يقع بين يديها من كتب.

ثم وقعت الحرب العالمية الأولى. وبرغم ذلك تمكنت الطالبة المجدة من أن تكمل سنة دراسية واحدة في مدرسة الاميركان قبل أن تستقر

في المنزل طوال ثلاث سنوات. ثم كان زواج تقليدي خرجت منه معلنة رفضها كل ما يتنافى مع تفكيرها وعقلها العلمي.

هذه التجربة لم تكن عائقاً للصبية، بقدر ما كانت حافزاً دفعها إلى متابعة دراستها العليا في كلية البنات (والتي تعرف حالياً باسم الجامعة اللبنانية الاميركية). وأصبحت **سنية** واحدة من ثلاث طالبات تابعن برنامج السنتين في الكلية، وتخرجن بشهادات جامعية. أما رفيقاتها فهما **منيرة البربير وأرمينوهي موغريدتشيان**. والأخيرة أصبحت طبيبة، وظلت محافظة على صداقتها المتينة لرفيقة الصف.

وتحتفظ سجلات «الجامعة» بذكرى طيبة للرائدات الثلاث، فاتحات الطريق، وحاملات المشعل أمام الطامحات الى الدراسة العليا والاختصاص العلمي.

* * *

ولم تكن الدراسة العلمية أمراً سهلاً. فهناك مواضيع لا تُعطى في كلية البنات، وكان على **سنية** الطالبة، أن تنتقل إلى **الجامعة الاميركية** لتحضر صفوف العلوم والرياضيات.

وبدأت تكتشف الفجوات التي خلفتها دراستها الابتدائية والثانوية حتى أن أستاذ الهندسة كلفها نقل رسالة شفوية إلى والدها قال فيها: «اخبري والدك بأن نجاحك أمر مستحيل».

ولا تذكر الدكتورة ما إذا كانت قد بلغت أباها الرسالة. غير أنها تذكر جيداً أَنّ صوتاً داخلياً، كان ينبري للأستاذ، يعاكسه، مؤكداً لها، أَنَّها سوف تنجح، بل هي في طريقها إلى النجاح الأكيد.

* * *

ثمة ضغط آخر، تعرضت له الطالبة، التي لم تخلع الحجاب، لكنها تجرأت على أن تخطو داخل عتبة جامعة طلابها جميعهم من الذكور. ولم تلبث أن شعرت بالضغط يزداد، وهي تتسلم رسائل التهديد المغفلة. فأبلغت أساتذتها، ولم يكترثوا بادئ الأمر، ولكن، عندما تحققوا من جدّية هذه المحاولات، بادروا إلى مساندتها، وصارت تلاحظ أحدهم **البروفسور نيكولز** يخرج، بعدما تنهي دروسها، ليرافقها على الرصيف المقابل، حتى تبلغ كلية البنات.

* * *

ولم يُبذل الجهد سدى، جهد الطالبة والأساتذة، فقد تخرجت **سنية** بتفوق، وانطلقت تحمل شهادتها الجامعية وشعوراً كبيراً بالمسؤولية، فدراسة سنتين في الجامعة، ليست سوى خطوة تمهيدية، للحلم الأكبر... وكان حلمها يرسو عند مهنة الطبّ ودراستها تستغرق سنوات. ولم تكن هناك طبيبة واحدة في بيئتها، ففي حال نجاح أمنيتها، تكون **سنية** الطبيبة الأولى في لبنان، وربما في عدد كبير من البلدان العربية.

وكانت هناك فتاة لبنانية، سبقتها على الطريق، وتخرجت من كلية الطب في باريس، عام ١٩٢١ . إنها **انستاز بركات** (زوجة **جرجي نقولا باز** فيما بعد). وكانت الفتاة الوحيدة بين مجموعة أطباء تخرجوا تلك السنة ومن عدة بلدان أوروبية.

أية شجاعة كانت لها! أية حماسة وقفت خلف شعلة الطموح المتّقدة في نفسها؟

الفتاة في السابعة والعشرين من عمرها، ولكن من يكترث لعدد

السنين؟ ها هي تصمم على السفر. عينها على الأفق البعيد، وفكرها يسبقها إلى كلية الطب خلف البحار.

وتتبلغ قبولها في كلية الطب النسائي، في **ولاية بنسلفانيا** الأميركية. وجواز السفر القديم لا يزال في حوزتها: صادر في ١٦ تموز عام ١٩٢٦ عن الجمهورية الفرنسية المنتدبة في لبنان. ورقمه ٤٢٠٦ .

حملت جوازها، وحقيبة السفر، وصعدت فوق ظهر باخرة متوجهة إلى **مرسيليا**. الفتاة على خط قدرها:

«كانت ليلة الفراق صعبة. وكنت مترددة: أسافر أم أقلع عن السفر؟ وأية مغامرة هذه؟ وماذا ينتظرني عند الوجه الآخر من الكرة الأرضية؟ كدت أتراجع، لو لم تمتد يد أمي فتسندني: «سافري، يا ابنتي. واتكلي على الله. أريدك أن تسافري وتكملي دراستك»...

وسافرت. ولم تجف دموعي من بيروت إلى مرسيليا. وفي المدينة الغريبة بلغ الضيق أقصى درجاته، وفكرت، جدياً، في الرجوع، لكن صوت أمي ظل يرافقني، ويدفعني الى ان أقف بثبات: «إذهبي يا ابنتي، ولا تتراجعي. المستقبل ينتظرك»... وهكذا، استنفرت كل ما لي من شجاعة ومقدرة على التحمل، وتابعت رحلتي».

* * *

سنية **حبوب**، الطالبة العربية الوحيدة في الكلية الطبية. وأثار ذلك فضول الزميلات، فانهالت عليها الدعوات لتحاضر، وتتحدث إلى المرأة هناك، عن المرأة في بلادها. وكانوا يدفعون لها، لقاء كل

محاضرة، مبلغاً من المال، لم تنفق منه شيئاً بل أدخرته ليكون وسيلتها لتحقيق فكرة جديدة.

قضت في الجامعة سبع سنوات قبل أن تتخرج، عام ١٩٣١، وترتدي الثوب التقليدي الذي يحلم بارتدائه كل طالب جامعي. وقد حملت هذا الثوب، حين رجوعها، لتفرح به قلب والدتها.

وتضيف الدكتورة بأسى:

«كنت احتفظ بهذا «الروب»، ذكرى حلوة، إلى أن وقعت الحرب الحالية، ونهبت العيادة، وأحرق ما بقي فيها، وخسرت، لا الثوب وحسب، بل جميع المعدات الطبية (أحرقوها بخشب الأبواب والنوافذ) وخسرت سجلاتي جميعها، وأشعر بحسرة عميقة لذلك. ولا أستطيع أن أتغلب على مرارة الشعور الذي يرافقني في أيامي هذه، فقد عرفت النجاح، وحياة العمل الرضية. أجيال عديدة ولدت على يدي. «أولادي» أصبحوا أطباء ومهندسين ومهنيين. وكلهم ساهموا في بناء هذا الوطن. عشت في مملكة عملي، ولم أحب شيئاً فوق حبي لمهنتي. لم أشعر مرة واحدة بالتعب من مهنة اخترتها، وسعيت إليها. مارستها طوال خمس وأربعين سنة، كان معدل الولادات، في الشهر بين عشر وخمس عشرة ولادة. وكان هناك زوجي وبنتاي، وأعمال المنزل. وكنت أقوم بهذه المسؤوليات جميعها بفرح لا يوصف...».

* * *

وسنية، لم تكن الوحيدة في عائلتها، التي تابعت دراستها العليا. فأختها **نهيل حبوب** درست طب الأسنان. أما **عفيفة** الجميلة، فلم

تتابع دراستها الجامعية، وثمة أخت ثالثة توفيت إبان الحرب. أما أخواها **حسن وعبد الحميد** فقد انصرفا إلى الحياة العملية.

وماذا عن البدء في ممارسة الطب؟

تتنفس الدكتورة براحة ورضى وهي تستعيد الذكريات: «لم يكن البدء سهلاً. لقيت معارضة شديدة. ولكن المعترضين، لم يلبثوا أن أحضروا إلي زوجاتهم. كنت شديدة الحماسة، منذ البداية. وقبل أن أنهي تجهيز العيادة فاجأتني سيدة تطلب مني أن أفحصها. قلت لها: «لا أستطيع أن ألبي طلبك، فإني لم أعلق الستائر على نوافذ العيادة»، فأجابت المرأة: «لا بأس». ثم أبصرتها تخلع معطفها، وتعلقه ستاراً على إحدى النوافذ، قبل أن تستعد للفحص... أمام هذه الحاجة الشديدة إلى مساعدتي، ماذا كان عليّ أن أفعل، سوى أن أفتح الباب لكل من تطرقه، طالبة المساعدة؟»...

* * *

وذاع صيت الطبيبة الشابة، وتناقلت اسمها أحاديث الصالونات، وأعمدة الصحف. وفي يوم، قصدها صحافي شاب ليجري معها مقابلة لمجلة «**الرسالة**». والمقابلة تطورت إلى إعجاب. وقبل أن تصدر المجلة، كان صاحب الحديث يطلب يد الطبيبة للزواج. وقد نجح في إقناعها برغم معارضتها. أما سبب المعارضة فهو فارق السن بينهما، إذ كانت تتقدمه بعشر سنوات.

وتقول الدكتورة سنية: «**في الواقع، إن طلبه فاجأني. حسبت، في بادئ الأمر أنه يريدني أن أتوسط له لخطبة فتاة، ولم يخطر في بالي أنه كان يوجه الكلام إلي**».

وتم النصيب، وتزوج الصحافي الشاب **محمد النقاش**، صاحب الأفكار الجريئة والنزعة المستقبلية، برائدة الطب النسائي، وذلك عام ١٩٣٧، ورزق الزوجان ابنتين هما: **سنية وعفت**.

* * *

لا يسعني، وأنا أكتب عن الطبيبة الرائدة، إلا أن أعود قليلاً إلى الوراء. وإلى شهر حزيران بالذات، حين استلمت الدكتورة **حبوب** بطاقة دعوة، من كلية الطب في **بنسلفانيا**، لحضور الاحتفال الكبير، أو اليوبيل الذهبي، لمناسبة مرور خمسين عاماً على تخرجها. ولم تستطع السفر لأسباب صحية، بينما التقت رفيقات الصف، زميلاتها الرائدات، من شتى أقطار العالم، وذكرنها بالخير، وكتبن لها رسالة، تحمل تواقيعهن، وتنقل إليها نسمات الوفاء والمحبة.

وذكرى **سنية**، الطالبة، لا تزال تتجدد مع كل عام، في سجلات الكلية، وعبر المنحة التي خصصتها لطالبة مستحقة من عائلة **حبوب**، أو من لبنان، أو من العالم العربي. أما المال الذي يدعم تلك المنحة، فهو ما أدخرته أيام الدراسة، أي قبل خمسين سنة، من ريع محاضراتها في الأندية الطلابية.

ويظل التقدير، الذي استحقته في وطنها، مكتوباً بأحرف المحبة في صدور الأمهات والأولاد. وهذا أهم من وسام الاستحقاق الفضي الذي علق على صدرها في عهد **الرئيس ألفرد نقاش**، ووسام الاستحقاق المذهب الذي منحته في عهد **الرئيس بشارة الخوري**، ووسام الأرز من رتبة فارس، في عهد **الرئيس سليمان فرنجية**، ثم وسام الجمعية الفرنسية للخدمات الإنسانية.

كما ظلت تعتبر هذا التقدير أهم من إطلاق اسمها على شارع من منطقة الرملة البيضاء. وحين ذكرته لها هزت رأسها، وهي تغالب دمعة في العين: «**ليتهم أبقوا على عيادتي ومنزلي، ولم يطلقوا اسمي على أي مكان**»...(*)

الحق معك، يا سيدتي الطبيبة! كل الحق معك! ولكن، ماذا نقول في زمن الدمار والفوضى؟ وهل هناك من يعتذر؟

(*) كتب هذا الفصل قبل وفاة الدكتورة حبوب في ٧ أيلول سنة ١٩٨٣ .

- مقابلة شخصية مع الدكتورة سنية حبوب روت خلالها سيرتها.
- مقابلات مع زوجها الأستاذ محمد النقاش وكريمتها عفت النقاش.

فهرس



تقدم فصول هذا الكتاب، بأجزائه الستة، وجوها لنساء رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل انماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

واذ أضع، بين أيدي قراء العربية، هذه النماذج المتغلبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية والهام لرائدات الغد.

ا. ن.



